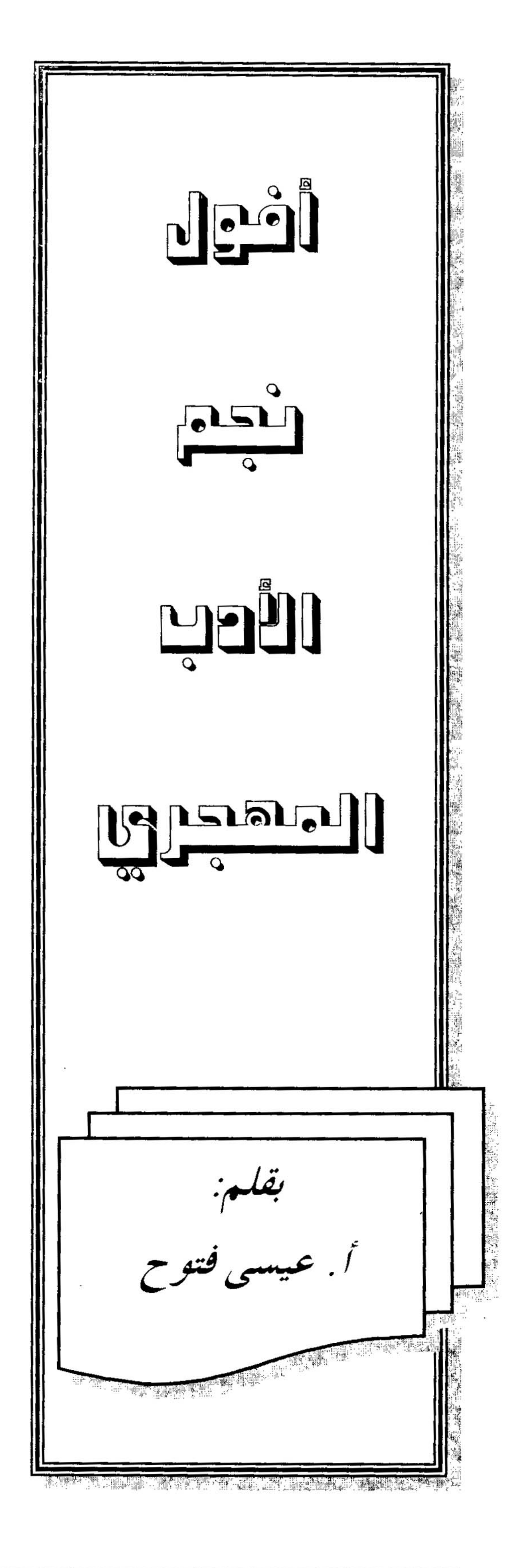





شعر: مدحة عكاش - رئيس التحرير

أي المفاتـــن فـــي رحـــابك أعشـــق
بلـــد الفـــتون وســـحرها يـــا جلـــق
فـــي كـــل زاويـــة وكـــل حنـــية..
جفـــن يـــرف ومقلـــة تـــتألق
وعلـــى حصـــاك ويـــا تـــبارك مـــا أرى
نفحـــات فـــردوس تعـــج وتعـــبق
جمعـــت فـــي مغـــناك كـــل ســـجية
يـــزهو بهـــا هـــام الـــزمان ويشـــرق
هـــل كنـــت إلاّ للعـــروبة قلـــبها
ولســـانها، فـــإذا اســـتجارت يـــنطق
أعطيـــتها يـــوم الشـــدائد موثقـــا
جـــل العطـــاء وجـــل ذاك الموثـــق
ورفعـــت فـــي دنـــيا الكـــرامة رايـــة
ظلـــت علـــى رغـــم المصـــاعب تخفـــق
يـــا موئـــلاً للمكـــرمات ومعقـــلا
ألـــوى الـــزمان بـــه وعـــز المشـــفق
تأبيـــن حكـــم الظالميـــن كـــريمة
كـــم ذل فـــيك الظـــالمون وأخفقـــوا
إن غـــاب مـــن مضـــر بســـاحك فـــيلق
يتـــبعه مـــن دنـــيا أمـــية فـــيلق
أو أنكـــر الباغـــي علـــيك مآثـــراً
وقـــف الـــزمان علـــى ربـــاك يصـــفق
تبقيـــن يـــا ظـــئر العـــروبة كعـــبة
يـــندى بســـاحتك الإبـــاء ويعـــرق
تشـــتاقك الدنـــيا جمـــالاً شـــيقا
ولانـــت فـــي الدنـــيا الجمـــال الشـــيق
ويحـــار طرفـــي فـــي ربـــاك ومـــا درى
أي المفاتـــن فـــي رحـــابك يعشـــق



أينما حل العرب، وأينما استوى بهم المقام، كان لابد لهم أن يتركوا آثاراً تدل عليهم.. آثاراً مادية ناطقة.. قصوراً ومعابد وحمامات، ونقوشاً وآثاراً فكرية برعوا فيها أيما براعة.

دخلوا الأندلس فاتحين يحملون معهم لغتهم ودينهم مبشرين، فبهت الإفرنج أمام عظمة هذا القرآن يرتلونه بتقوى وخشوع، فيفعل في الألباب ما يفعل السحر..! وبهتوا أمام هذه اللغة الغنية، تحمل طاقة من البيان لا أبلغ ولا أعمق، لقد استهوتهم على الرغم منهم، فراحوا يتسابقون ليس لتعلمها فحسب بل لإتقان أصولها، وجعلها أداة ما يكتبون،... كانت لغة الحاكم، بها تدبج الرسائل، وتدون المعاملات الرسمية ويتحدث الخليفة وحاشيته، ورجال السلطات الأخرى، والمواطنون المنتشرون هنا وهناك.

غير أن الصورة التي نزل بها العرب في الأندلس تختلف كثيراً عن الصورة التي نزلوا بها في الأميركتين، دخلوا الأندلس أعزة ذوي هيبة وسلطان، ودخلوا الأميركتين ضعفاء نازحين عن بلادهم، مختارين أو ساخطين: مختارين لأنهم ينشدون الحرية في بلاد سمعوا أنها تقدس الحرية، وأنها تفتح صدرها للغريب، كل غريب. وساخطين على دولة الرجل المريض التي فرقت الأخ عن أخيه وأخته، والأب عن زوجه وأولاده.. وختمت على أفواههم كي لا يجهروا بالحق.

نعم لم يغادروا لبنان وسورية وفلسطين عن رضى، حباً بالمغامرة والرحلة، وإن يكن في ذلك شيء من الصحة، بل ليغيروا حالاً بحال، ووضعاً بوضع، وليستبدلوا ذلهم بكرامة كما قال الشاعر فوزي المعلوف:

قسماً بأهلي لم أفارق عن رضى
أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت من الحياة بموطني
عبداً، وكنت به من الأسياد

لكن الشكل الذي دخلوا به في البلاد: جاليات جاليات تعد بالمئات والألوف، جعل السكان ينظرون إليهم نظرة فيها شيء من الضعة والاستخفاف، ظانين أنهم حثالة قوم مطرودين، لا قيمة لهم ولا اعتبار، فكانت أقل وصمة يصمونهم بها أن يعيروهم بلفظة (توركو) على حد تعبير الشاعر القروي، وتعبير الأديب أنيس شيبوب في (موشح) لبناني بعث به إلى الشاعر الشعبي أسعد غانم:

كانوا يسمونا (توركو) تيهينونا
أنّ نرفزنا ناكل قتله ويسبونا
(السيكانو) أحسن منا ما يحبونا
حتى اليهودي أفضل ابن اسرائيل
ما كنا نحنا نعرف شو مركزنا
وميننا الدولي لتحمينا وتعززنا
بقينا صفر عالأيسر حتى فزنا
انقلبنا دفعة وحدي من جيل لجيل

والغريب أن هذه النزعة ظهرت، أكثر ما ظهرت، في المهجر الجنوبي، والبرازيل بخاصة، وانعدمت أو كادت في المهجر الشمالي، ولعل السبب يعود إلى أن الولايات المتحدة كانت آنذاك تسبق البرازيل في الرقي الاجتماعي والميدان الحضاري.

دخل السوريون[1] أميركا لا بغاية أن يفرضوا لغتهم، وأين هم من ذلك، بل لغاية الكسب والارتزاق، وتأمين شيء من الحريات، غير أن وضعهم تغير فيما بعد عندما نالت دولهم في الشرق استقلالها وأصبح لها في كل مقاطعة ممثل يُعنى بشؤونهم، ويسعى لرفع كلمتهم أمام أهل البلاد وأمام الدولة، كقول أنيس شيبوب بعد الاستقلال:

ما بيكفي عندك راية بتكرسها
وعندك دولة فتية بتقدسها
السفير ساكن بالريو تيحرسها
القنصل قاعد بسان باول مالو متيل

ولما استعادوا هيبتهم واستقروا اغتنى أكثرهم من التجارة التي احترفها معظمهم - وهي مهنهم المفضلة - راحوا يقيمون النوادي الأدبية والخيرية، ويشيدون الكنائس والمدارس لتعليم العربية أولاً ولغة البلاد التي يقطنونها ثانياً، لأنهم عرفوا أنهم إن ظلوا جهلاء أميين، ضعفت قيمتهم، وقل شأنهم، وساءت سمعتهم، وابعدوا عن الوظائف العلمية والإدارية، وهذا بدوره يزيد الدولة إهمالاً لهم، كيف لا وبين رعاياها عشرات الجاليات من غير السوريين العرب..! .. وهكذا كان حتى برع بينهم الكثيرون في مجال العلوم كالطب والهندسة والحقوق، وصار لهم مقاعد مخصصة في البرلمان.

قلت لقد احترف أكثر المهاجرين التجارة. وتجارة (الكشة) بخاصة، لأنها لا تحتاج إلى رأس مال كبير، يحملها الرجل على ظهره حانياً، ويثبتها بسيور من الجلد، وكان يقطع بها المسافات الطويلة، سائراً على قدميه وسط الأرياف، وبين الفلاحين.. ليبيعهم مما تحوي (كشته). وكثيراً ما كان يضطر إلى الإدانة الطويلة المدى... وقد يأبى المدنيون إيفاء ما عليهم، فيسكت لحاجته إليهم في

---

١ - كان المهاجرون يطلقون كلمة السوريين على جميع الجاليات المهاجرة دون النظر إلى القطر أو البلد الذي نزحت عنه.

الحماية والمأوى.. يبيت عندهم أو في جوارهم على الأقل، متوسداً بضاعته التي يحمل.

وفي البراري، حيثما الطبيعة الضاحكة، وتحت شجرة منفردة كاد يظمئها الحر.. كان هذا الغريب يتفيأ قليلاً، ويسترسل في أحلامه.. تطير به إلى الشرق، إلى لبنان وسورية، ليعيش مع حبيبته التي تركها نهب الوساوس تجتاحها، والقلق يقض مضجعها.. ليس ثمة ما يذكره بها مثل هذه الخصلة من الشعر قطعتها من جدائلها ليلة التمت القرية لتوديعه ولسان حالها يقول:

"النازل في البحر مفقود والطالع منه مولود"

هذه الخصلة توازي عنده ثروة أيما ثروة. هي أثمن من (كشته) بكثير..! أفليس من أجل من دستها في صدره سافر وذاق الأهوال..؟ يقول الياس فرحات:

خصلةُ الشعر التي أعطيتنيها
عندما البينُ دعاني بالنفير
لم أزل أتلو سطورَ الحب فيها
وسأتلوها إلى اليوم الأخير
خنت عهدَ الحب لا بأس فاني
مكتفٍ بالاثرِ الحلو الثمينْ
فأنا ما عدت أحيا بالتمني
بعدما منيتني عشرَ سنين

كل تلك الخواطر كانت تهجم عليه دفعة واحدة فتنطقه بالشعر، شعر الحنين والشكوى والألم، وتعلمه كيف ينظم مشاعره، ويفرغ أحاسيسه مع أنه لم يك من قبل شاعراً.. إنها التجربة، تجربة الالم، تجربة الضرب في سبيل الحياة، على مرارتها وعنفها، تخلق منه شاعراً تجري قلمه، وتفتق سرائره، وتوقظه، وهو لا يصدق أنه يقول الشعر .. إذ كيف يؤتى الشعر من لم يدخل المدارس ولا تعلم فن القريض، ولا تلقى أصول البيان على يد أستاذ يذكر كما قال الياس فرحات:

يقولون عمن أخذتَ القريضَ
وممن تعلمتَ نظمَ الدرر
وأين درستَ العروضَ وكيف
تلقنتَ هذا البيان الأغر
وما كنتَ يوماً بطالبِ علم
فإنا عرفناك منذ الصغر
فقلت أخذتُ القريضَ صبياً
عن الطير وهي تغني السحر
وعن خطراتِ عليلِ النسيمِ
يمر فيشفي عليلَ البشر
وعن ضحكاتِ مياهِ الجداول
فوق الجلامد بين الشجر

ما مس الحنين قلباً إلا زرع فيه العبقرية، وما مس الألم نفساً إلا طهرها من أدرانها، ونقاها مما يعلق بها من أوضار... الألم كالنار تصهر الإنسان في معمل الوجود، أما حقيقته فتبقى وأما الزبد فيذهب جفاء... لا شيء يعلمنا مثل الألم كما قال الفريد دي موسيه، وأزيد لا شيء يصنعنا كالألم.. فكما لا تخرج الخمرة من العنقود ما لم تضغطها الآلة العاصرة، كذلك لا يخرج النبوغ من القلب البشري ما لم يضغطه الألم ويعصره الشقاء.

من منا ينكر على شعراء المهجر هذا العنت الكبير الذي لا قوه فتحملوه صابرين، عندما كانت حمائل الكشة الجلدية ترسم على أبدانهم خطوطاً لا تحول ولا تزول..؟! من هنا

أصبحوا شعراء: من خبراتهم القاسية، وغربتهم المديدة، من قراءاتهم، من عكوفهم الدائب على هذا الادب في ساعات الفراغ، وما أقلها، ينقلهم بالذكرى إلى أوطانهم، إلى شرقهم العربي المتشح بخمار الصوفية، والأشباح والرؤى والأحلام والخيالات والصور... إلى الارز وصنين يستلقي البحر عند قدميه، إلى شمس لبنان الصافية، إلى العرزال والناطور، إلى حلقات الدبكة في ليالي الأعراس المقمرة، إلى أكلة (الفتوش) وخبز التنور كما يقول أنيس شيبوب في أبيات له من (العتابا) الجميلة:

نسيتو نومة العرزال بحقله
لا تحرمني يا بو عيسى بحق لي
لبن مقطوف فوق زيت بحق لي
بخبز تنور من بعده عنب
أنا أن رحت لبلادي بأنفه
وعزة نفس ما بحسد حدا

وهذا أمين مشرق نراه قد كره حياة (برودواي) الصاخبة ومل من رؤية القصور الفخمة والمباني الشاهقة وأشتاق إلى بيته الحقير، وإلى أمه وفستانها العتيق، فبعث إليها يقول: (ما أقسى الغربة، وما أمر الوحشة..!! قد كرهت البعاد يا أمي، واشتاقت نفسي إلى ما ضيها الأمين قد كرهت روائح العطور الفائحة من التماثيل المتخطرة في (برودواي) واشتاقت حواسي إلى روائح الأمومة المنتشرة من فستانك العتيق. قد كرهت نيويورك، وكرهت أميركا وكرهت العالم، ولم يبق لي في الحياة إلاك إلاك يا أمي)

وهذا الشاعر القروي يتضرع إلى ربه، ويجأر بالدعاء من خلف البحار السبعة ألا يحرمه صيف لبنان عن قريب لينقر العود فيه نقرتين عند عين:

ربِ لا تحرم الغريبْ
صيفَ لبنانَ عن قريبْ
مستلذاً مع الحبيبْ
ينقرُ العودَ نقرتين
عند عين
إيه لبنانَ هل يراكْ
مغرمٌ شفَّه هواك..؟
حبذا العيشُ في حماك
حبذا العيشُ ليلتين
ثم حين

إن المدرسة لا تعلم الشعر، ولا تخلق الشعراء إلا نادراً. ولكنها تهذب المواهب، وتنقيها، تخطط لها وتفتح أمامها الدرب، ولكنها لا توجدها... التجربة كل شيء في الشعر وأوشك أن أقول هي الشعر، فلو أحصينا ثقافة شعراء المهجر في الوطن لرأيناها لا تتعدى المواظبة أشهراً قليلة على مدرسة (تحت السنديانة) أو مدرسة المعلم فلان الذي كان يقتصر على تحفيظهم الصلوات، وتلقينهم شيئاً من العربية والسريانية وبعض مبادئ الحساب.. وكلها لا ترتفع إلى مستوى الثقافة التي يجدر أن يمتلكها الشاعر الحق.. أفلا يجعلنا هذا الكلام نؤمن بأن قصة الشعر في المهجر تكاد تكون معجزة أو كالمعجزة..؟

* * *

لقد بلغ أدب المهجر ذروته، عصره الذهبي على يد جماعة (الرابطة القلمية) في الشمال و (العصبة الاندلسية) في الجنوب، حتى صارت الرابطتان مدرستين أدبيتين تتلمذ عليهما أكثر من شاعر في قلب البلاد العربية

نفسها، تتلمذ الشابي في تونس، وأعضاء جمعية (أبو لو) للشعر كالدكتور إبراهيم ناجي والدكتور أحمد زكي أبو شادي، وعلي محمود طه في مصر وغيرهم وغيرهم... ومن يقرأ (أغاني الحياة) ديوان الشابي الوحيد يقع على هذه الظاهرة، ويراها رأى العين: من رومانتيكية مغرقة تبلغ حد التشاؤم، وثورة على قواعد الشعر الكلاسيكية وميل إلى ركوب الخيال المجنح..

وفي سورية ولبنان نشأ جيل لا يتأدب بغير أدب المهجر، ولا يروقه شعر غير شعر المهجر، ولا تستهويه ثورة غير ثورة هؤلاء المهجريين أمثال جبران ونعيمة وغيرهما من أدباء الشمال بخاصة... ولا غرو فالشباب العربي كان آنذاك في أول تفتحه ويقظته، لم يمض على شعوره بالحرية، وخلاصه من عبء الأجنبي غير سنوات قليلة.. هذا إذا لم نذكر الثورة التي كانت تجتاح كيان الشعر في العالم وتسري فيه سريان الحمىّ.

* * *

قد يتساءل بعضنا: ما سبب ركود حركة الأدب المهجري اليوم..؟ أين (الهدى) و(الدليل) و(مرآة الغرب) و(المهجر) و(السمير) و(السائح) من الجرائد وأين (الفنون) و(مينرفا) من المجلات الأدبية والنسائية..؟ أين الرابطة القلمية والعصبة الأندلسية وأعضاؤهما الكثر..؟ أين هذه الحركة المائجة الدائبة، يملأ ضجيجها الخافقين..؟ ولكنه إذا ما تبصر قليلاً في الأمر، استطاع أن يجيب على تساؤلاته بنفسه، ما دام يعرف أن أدباء الرعيل الأول – وهم العمود الفقري لأدب المهجر – تفرقوا أيدي سبا، بينهم من طواه الردى كجبران وأبي ماضي، وندره حداد وأمين مشرق ونسيب عريضة، ووليم كاتسفليس، ورشيد أيوب وأمين الريحاني، وَفوزي المعلوف، وسعيد اليازجي، ومنهم من عاد نهائيا إلى الوطن كمخائيل نعيمة، واسكندر اليازجي، ونظير زيتون والشاعر القروي[١].. أما القسم الثالث ممن بقي فقد فترت همته، وخف نشاطه، وقلت عزيمته على الانتاج، باستثناء شفيق المعلوف الذي صدر له ديوانان هما (عيناك مهرجان) و(سنابل راعوث).

ثمة عاملان مهمان نستطيع أن نضيفهما إلى العوامل السابقة التي سببت ركود أدب المهجر أولهما انقطاع سيل الهجرة من البلاد العربية، وثانيهما نشوء جيل من أبناء المهاجرين يعجز عن التكلم بالعربية بله الكتابة والقراءة بها، هذا الجيل تزوج بفتيات أجنبيات، حتى ذابت شخصيته، وكاد ينسى أصله العربي. هذا إذا لم نذكر الكثيرين ممن اكتسبوا الجنسيات الأميركية واستحال الوطن في نظرهم حلماً ضبابياً لا واقعاً يسعون لإدراكه.. ويذكر الدكتور عيسى الناعوري في كتابه عن إيليا أبي ماضي أن أولاد هذا الشاعر يجهلون العربية جهلاً تاماً، بالإضافة إلى أنهم تخصصوا بالعلوم الذرية.

شاعران فقط هاجرا حديثاً لى الولايات المتحدة الأميركية هما يوسف الخال وسعيد جبرين، فعمل الأول محرراً في جريدة (الهدى) النيويوركية وأصدر – وهو هناك – مسرحيته الرائعة (هيروديا) ثم عاد إلى لبنان بعد تسع سنوات لينشئ داراً للنشر، ومجلة خاصة بالشعر، وعمل الثاني في القسم العربي لإذاعة صوت أميركا[٢]، وهكذا خلت الساحة من فرسانها الأوئل، فخفتت تلك الأصوات

١ـ لقد اكتفى الياس قنصل وعبد المسيح حداد والياس فرحات بزيارة الوطن دون الاقامة.

٢ـ راجع حديثنا عنه في مجلة (الثقافة) الدمشقية (نيسان ١٩٦١.ص: ٤٤)

الهامسة، وجفت تلك الخناجر الذهبية إلا من غناء لا يطرب النفس إلا قليلاً.

قلت إن أدب المهجر يعاني اليوم أزمة صمت عنيفة، فالمطابع العربية هناك صدئت، وتاقت عجلاتها إلى روائح الحبر... غير أنها في عام ١٩٥٧ تمخضت - بعد طول انتظار - عن كتاب اسمه (مهد الحياة وطريق الحق) ألفه النسيب أنيس شيبوب، وأخرجته مطابع جميل صفدي في سان باولو بالبرازيل، ثم رأى هذا النسيب أن يخصني بنسخة منه سأجعلها نموذجاً للحديث عن أفول نجم أدب المهجر.. إننا نظلم الكاتب لو قلنا عن كتابه إنه كتاب أدبي بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ذلك أنه لم يؤلفه إلا ليعرض علينا رأيه في الحياة والموت، في العلم والأخلاق، في الوعد والوفاء، في الصديق الصادق، في التواضع وحسن السلوك، في الخير والشر، في كتم السر واحترام الرأي، في نكران الجميل والكذب والاغتياب والرياء، وفي الصراحة والحق والاعتدال والدين الخ... فهو بحق (يبحث بكل شؤون الحياة، ويظهر حسنات المرء وسيئاته) كما يقول المؤلف في ظاهر الغلاف.. ويكفي أن تقرأ الفهرس لتعرف الغرض الأول والأخير من وضع الكتاب.

لقد استهل المؤلف كتابه بإهدائه إلى (أبناء مواطنينا وذراريهم في المهجر، مع العلم أن كثرتهم لا يقرؤون اللغة العربية وبعضهم لا يتكلمونها ويا للأسف) ولما كان الأمر كذلك فهو يطلب ممن يعرفونها أن يترجموا بعض ما فيه لتعم الفائدة، وتحصل المنفعة المرغوبة على حد تعبيره. ويقول:
"فهنيئاً لمن طالع فاستفاد وترجم فأفاد".

واستنفد في مقدماته جميع ما يحتاجه القارئ من نصائح وإرشادات في فن المطالعة، ومطالعة كتابه بخاصة كأن يطالعه - إذا كان ممن يميلون إلى المطالعة - (بكل إمعان وروية كمن يريد أن يسبر غور الفكرة ويصل إلى أعماقها.. مغتنماً فترة انفراد، أو ساعة راحة مسائية، أو عندما تكون في نزهة بعيداً عن ضوضاء المدينة، لأنك في هذه الظروف تكون هادئ الأعصاب مرتاح الفكر، مرهف الشعور).

ثم يعود في الصفحة الرابعة ليوضح أكثر صورة كتابه فيقول: (ليس في هذا الكتاب الصغير الحجم الكبير الفائدة شيء من الخيال أو الوهم بل هو كتاب علمي عملي، يبحث مطولاً في تطورات هذا العالم وتقلباته، لا بل في كل أموره وحوادثه، وما من كبيرة أو صغيرة إلا وقد وفيتها حقها من الوصف وخصصت البعض منها بالانتقاد الصريح، وكلها مما نراه ونسمعه ونلمسه في كل يوم لا بل في كل ساعة).

ويقول: (لا تكن عجولاً إذا طالعت كتابي، اقرأ الخاطرة أو الفكرة وقف بعدها ولو لحظة، وجه فكرك نحوها ولو قليلاً علك تهتدي إلى المقصود بها وينجلي لك الغامض منها، وبنوع خاص أشعاري الصادرة عن شعور خفي). ويطلب من قارئ كتابه أيضاً (أن يسمع صوته وهو يطالع لكي لا تشترك حاسة السمع مع الشعور الفكري، ولكي لا يقل الاستنتاج وتضعف الفكرة وتتبعثر المواد...).

ولا ينسى أن يستعير طريقة الوعاظ فيقول: (لكن الحق أقول لكم إذا أعطيت الحكمة المدونة في هذا الكتاب كلها كاملة لأي إنسان وعمل بها، فقد يصبح الرجل الكامل بل الرجل الذي لم يوجد بعد).

لقد صدق المؤلف إذ قال إن كتابه علمي عملي: علمي لأنه مفعم بالحكمة المصفاة، وطافح بالوصايا والتنبيهات.. وهو صورة صادقة لنفسه التي غمرتها المادة حيناً

مـن الزمـن ثـم طمحـت إلى الانعتاق منها، والإفـلات مـن إسـارها، فراحت تعظ وتعلم وترشـد، وحصـل عندها شيء من رد الفعل شأنها شأن نفوس المهجريين قاطبة.

ولقـد طغى عقله على حسه، وإدراكه علـى شـعوره، فلم يعد هذا الإنسان العاطفي القلـق المترجرج، بل الإنسان الناضج المفكر الواعـي الذي يجعل الحكمة رائده في الحياة، فذكرنـي بابن المقفع في كتابيه (الأدب الكبير) و(الأدب الصغير).

غـير أن علة أنيس شيبوب الرئيسية فـي هـذا الكـتاب أنـه يفـتقر إلى الصياغة الصـحيحة، فعـبارته دوماً ملتوية، وأخطاؤه اللغويـة لا تحصى.. يكتب كما يتحدث ببساطة متناهـية. ورغـم شعوره بالحرج في إعطاء العبارة الجيدة وتعثره الكثير، فإنه لم يتردد في بسـط آرائه، لاعتقاده أن قصور اللغة يجب ألا يحول دون عرض الأفكار لئلا تموت في نفس صاحبها، ولا ينتفع بها الآخرون، ولذلك يقول: (فـي الـبعض من الناس مفكرون موهوبون، ولكـنهم يخشـون الجهـر بأفكـارهم وإظهار مواهـبهم حـذراً مـن الأغلاط اللغوية، وشدة قواعدهـا الصارمة... على أن من هذا البعض مَـنْ يستسـلمون بـل يسـعون دائماً لإظهار مواهـبهم وأفكـارهم بأسـهل الطـرق وآمن العواقب... إن قوة اللغة لا تظهر المعنى العقيم وضـعفها لا يستر المعنى الوجيه، فالفضل كله بانسـجام معانـيها وحسـن سـبكها، وجمال تركيـبها، وهـذا التحديد ينطبق على لغة هذا الكتاب).

صحيح أن اللغة مهما سمت وارتقت لا تسـتطيع أن تخلـق الأفكار العميقة والمعاني الجديـدة.. ولا جدال في أننا نظل نؤثر الأفكار الجيدة التي تعرض بلغة سقيمة لكنها واضحة، على الألفاظ الطنانة التي تدور حول المعنى ولا تلجـه، وإن كـان البعض - للأسف - مازال يؤخـذ بالديباجة وتزيين الألفاظ وينصرف عن كل ما عداهما.

ليسـت غايتـي أن أخوض في قضية اللفظ والمعنى وأيهما أجدر بعنايتنا، لأنها قصة تطـول وهـي ذات جذور تاريخية معروفة... غـير أنني أشير إلى أن الآداب الحديثة أعطت الأهمـية كلهـا للمعـنى، وجعلـت كفته هي الراجحة.

لا أريـد أن أدافع عن لغة المهجريين وركاكـتها هنا، ولا أريد أن أثير حرباً شعواء علـيهم كما فعل بعض عبيد اللفظ من السلفيين والتقليديـين لاعتقادي بأن اللفظ والمعنى أشبه بشقي مقراض لا يُدري أيهما اقطع.. وإذا شئنا أن نكـون منصفين، كان علينا أن نلتمس لهم العـذر، وعذرهـم في الأمر واضح.. هو البعد عـن منابع اللغة العربية والمتحدثين بها، وقلة الاطـلاع علـى الأدب العربي القديم، ودراسة القسـم الكبير منهم في مدارس أجنبية، أو في مـدارس عادية بسيطة، اقتصرت على تلقينهم مـبادئ العلـوم، ثم غادروها ليشقوا الطريق بأنفسهم.

وكاتبـنا هنا أحد هؤلاء، لا يخجل أن يعلـن الحقيقة إذ يقول: (أنا لا أدعي أنني من الكتاب المالكين ناصية اللغة، المسيطرين على قواعدها كافة، على أنني أجرؤ وأقول إنني أحد المفكريـن الموهوبيـن، وهـا بعض أفكاري الصـائبة في متناولكم وبين أيديكم لا تطمسها قواعـد اللغـة، ولا تلقـي وشاحاً اسود على عينيها، لأنها تخترق الحجب، وتمزق الوشاح، ويظهـر نورها جلياً.) وهو - شأنه شأن أدباء المهجر كلهم - لم ينصرف للعمل الفكري، لكنه استطاع أن يفتح عينيه الواسعتين على الحياة،

وينظر إليها نظرة المدقق الحاذق فيخرج بألف عظة وألف درس، كما يقول الشاعر:

عبر كلها الحياة ولكن
أين من يفتح الكتاب يقرا

ويقول مرة أخرى عن نفسه: (أنا لست شاعراً بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى، لأنني لم انصرف إلى هذه المهنة الشريفة، ولكنني أستطيع أن أنظم شعوري واظهر أفكاري وما يجول بخاطري بأسلوب واضح شيق العبارة والمعنى، وحسن الوضع والتركيب، كما أن بين شعاري عدداً ليس بقليل مما يبتهج له فؤادي، ويفرح له قلبي، وبعضه من منتخباتي المحببة إلي).

والمؤلف إلى هذا حريص على أن يوصل أفكاره إلى الناس كلهم أجمعين، ولذلك يطلب ممن يقرأ كتابه ولا يعجب به أن يهديه إلى سواه بالثمن نفسه لعله يستفيد منه بذلك ويفيد، ولكي تتسع حلقة النفع منه يرى من واجبه أن يرسله مجاناً لمن يطلبه على عنوانه المذكور في الصفحة الأولى، لأنه ابعد ما يكون عن المال.. يقول: (وضعت كتابي هذا وأنا أبعد ما أكون عن الرغبة في مقايضته بمال، لأن النصيحة في اعتقادي تهدى ولا تباع. وعليه أقدمه لجميع أصحابي ومعارفي وأقربائي، لا بل لكل من يتصل بي عنوانه أو يطلبه مني، وعنواني في صدر هذا الكتاب، وإني أفعل ذلك لا منة ولا كبرياء).

والطريقة التي اتبعها في تأليف كتابه تكاد تكون غريبة من نوعها، فبعد أن يبحث الموضوع الذي هو بصدده بحثاً مركزاً موجزاً يعود فيختمه ببيت أو بيتين من شعره وبآية – كما يسميها – يضعها بين قوسين، ويلفت الانتباه إلى دراستها لأن البعض منها يحتاج إلى درس عميق وعميق جداً على حد تعبيره. فتحت عنوان (التوفير) كتب: (إذا ابتعت في شبابك ما لا حاجة لك به اضطررت في شيبك أن تبيع ما لا غنى لك عنه)

وآياته بالإجمال تكثيف لفصوله، وخلاصة مركزة لدروسه الحكيمة التي نثرها في الكتاب دون نظام، ومن هذه الآيات قوله:

إذا ابتعت ما ليس به لك حاجة
تبيع الذي ما لست عنه بمستغن

(مسرف اليوم فقير الغد)

وقوله في ذيل بحث (الخير والشر): (السليلة غالباً ما تتأثر بطبائع آبائها ولكن الشواذ موجود دائماً.. وقوله في نهاية بحث (الحسود) (كما أن الميت لا يعود هكذا الحسود لا يسود)... وقوله في آخر بحث (الباكون والمتباكون): "القليلون يبكون والأقل لا يبكون ولا ينوحون، والكثيرون يتباكون).. وقوله في بحث (طلبت التجنب):

إذا لم تستطع طبا لداء
فلا يجدي عقار أو دواء
تجنب ما استطعت ولا تعاند
متى عم القضا نزل البلاء

ويردف (الجهاد مع غير أهله كموقد الشمع في بيت عميان)... وعلى هذه الصورة يمضي الكتاب..

هذا هو أدب المهجر في صورته الحاضرة، يمثله كتاب (مهد الحياة وطريق الحق) فماذا عسانا نقول فيه بعد عدد من السنين..؟!




تقاسيمُ على مقامِ البكاء..

شعر: حسان الصاري

يتـــثاءبُ اللــــيلُ الطويـــلُ علــــى وســـــادتيَ الوثـــيرهْ
ويــــنامُ قـــنديلُ المســـاءِ أمـــامَ نافذتـــي الصـــغيرة
وعلـــى تخـــومِ اللـــيلِ ألمـــحُ نجمـــةً خجلــى غريـــره
عـــبرتْ إلـــيَّ مـــن البعـــيدِ، وحـــيدةً مثلــي أســـيره
تدنـــو وتـــبعُدُ كارتعـــاشِ الضـــوءِ فـــي عيـــنٍ حســـيره
لهفـــى تحـــوِّمُ فـــي الفضـــاءِ الرحـــبِ تبحـــثُ عـــن جزيـــره

*　　*　　*

يـــا بنـــتَ أجـــرامِ الســـماءِ تنزَّلـــي وارو الحكايـــهْ
فأنـــا وأنـــت نهايـــةٌ ختمـــتْ وتبحـــثُ عـــن بدايـــه
ضِـــعنا وضـــيعنا الـــزمان علـــى تفاصـــيلِ الـــروايه
وبقيـــتُ مـــثلكَ مُفـــرداً أمضـــي ولكـــن دون غايـــه







كالــــنهرِ تمســـكهُ الضـــفافُ وحيـــن تُطلقـــهُ الـــنهايه
عــودي لأفقــك فالصــباحُ يهــزُّ فــوقَ الشــرقِ رايــه

* * *

يــا خفقــةً فــي صــدرِ هــذا الليــل لــو تدريــنَ صــمتي
لتركــتِ أبــراجَ الســماءِ وعشــتِ فــي أحــناءِ بيتــي
أنــا مــنذ ســربلني الأســى أشــعلتُ للســارينَ زيتــي
ونــذرتُ عمــري للذيــن تشــتتوا فــي كــل سَــمْتِ
فأنــا ســفيرٌ للألــى عــبروا مــن الزمــن المُشِــت
لــو تنزليــنَ رأيتنــي أبكــي ولكــن دون صــوت

* * *

يــا نجمــةَ الصــبحِ القتيــلِ أمــا هُــنالكَ مــن صــباحِ؟
وحــدي أعــيشُ مــع الجــراحِ وكــيفَ أبــرأُ مــن جراحي؟!
أدمنــت أحزانــي القديمــةَ وامتزجــتُ مــع الــنواحِ
وتركــتُ روحــي ريشــةً تلهــو بهــا كــف الــرياحِ
لــو تعبريــنَ إلــيَّ لابــتلَّ الــندى بــدمِ الأقــاحِ







عتّقـتُ حزنـي فـي القـداحِ، ولـم تعـدْ تكفـي قِداحـي

* * *

يـا أخـتَ ليلاتِ العـذابِ وهـل عرفـتُ سـوى العذابِ؟!
أغفـو وأصـحو والـذي أخشـاهُ مـزروعٌ ببابـي
ودّعـتُ أيـامَ الشـبابِ ولـم أجـدْ فـيها شـبابي
لـو تسـألينَ عـن المضـى مـا حِـرْتُ فـي ردِّ الجـواب
أنـا مـنذ جئـتُ إلـى الدُنـا أقـتاتُ مـن همـي المُـذابِ
وحـدي ومـن قـالَ الهجـيرُ يعـفُّ عـن زهـرِ الروابي؟!

* * *

هـل تعشـقينَ الصـمتَ أم يُغـريكِ عـندَ الفجـرِ همـسُ
نامـتْ قـناديلُ المسـاءِ فمـا لهـا فـي الأُفـقِ عُـرسْ
واللـيلُ يسـبحُ والمـدى فـي مـرفأ الأحـزانِ يرسـو
وأنـا ونجمتـيَ الصـغيرةُ ضـائعانِ ولا نُحِـسُّ
الحلـمُ مـاتَ وضـمَّهُ فـي غـربةِ النسـيانِ رمـسُ







وبقيــــتُ وحــــدي لائــــباً مـــن دامـــعِ العينيـــن أحســـو

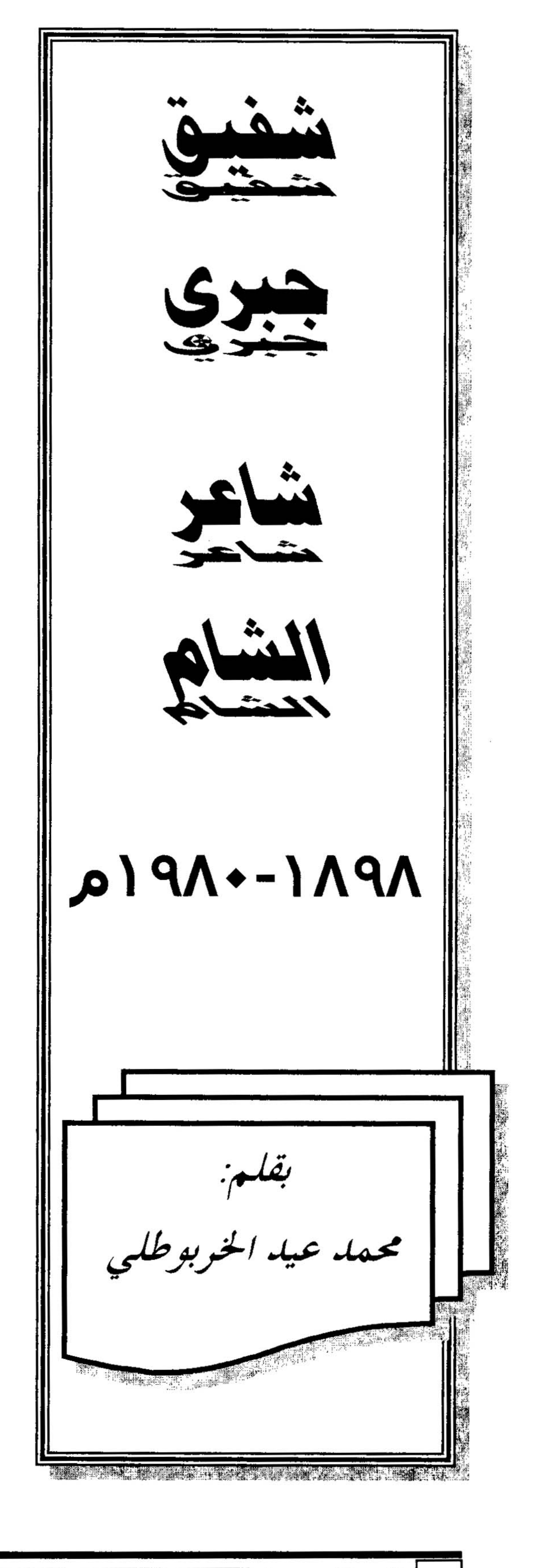
*　　　*　　　*

لـــولاكِ يـــا عيـــنَ الســـماءِ رميـــت للـــنارِ الدفاتـــرْ
وكســـرتُ أقلامـــي البريـــئةَ بعـــدَ تحطـــيمِ المحابـــرْ
وقطعـــتُ أوتـــارَ القصـــيدةِ وانتقمـــتُ مـــن الخواطـــرْ
وحزمـــتُ أحزانـــي العـــتاقَ وقلـــتُ للإلهـــامِ ســـافرْ
وتركـــتُ خلفـــي الصـــمتَ مصـــلوباً علـــى بـــابِ المقابـــرْ
لكـــنَّ مـــن وهـــبَ الحـــياةَ أرادنـــي للـــناسِ شـــاعرْ

*　　　*　　　*

يـــا مَـــنْ تملَّكـــتِ الســـماءَ، أنـــا علـــى أرضـــي عنـــيدُ
أقـــوى مـــن الشُـــمِّ الجـــبالِ، وكـــيفَ تُرهبنـــي الـــرعودُ؟!
أمشـــي ويمشـــي الدهـــرُ فـــي ركبـــي وتخـــتفِقُ البـــنودُ
لســـتُ الضـــعيفَ، وجـــاهلٌ مـــن قـــالَ أحلامـــي تبـــيدُ
أنـــا دوحـــةٌ يخـــتالُ فـــي أفـــيائها العمـــرُ الســـعيدُ
الأمـــسُ مـــرَّ وفـــي غـــدٍ يتبسَّـــمُ الصـــبحُ الولـــيدُ



إنه الشاعر الذي صاحب شوقي وحافظ إبراهيم والزركلي، أحد رواد الحركة الثقافية والأدبية في مطلع القرن العشرين، إنه خير من تحدث في أدبه وشعره ونثره وفكره عن قضايا أمته، فقد شكل مع أقرانه خير الدين الزركلي وعمر أبو ريشة وخليل مردم وبدوي الجبل ومحمد البزم وغيرهم الرعيل الأول من النخبة الواعية التي تصدت للاحتلال الأجنبي في سورية، وبمواقفهم أذكوا الحماس عند الشعب العربي، فوقوفهم كان حازما وصلبا في وجه المستعمر، وأشاع شعرهم نور الأمل من قلب النكبات، وأشعار شفيق جبري اذكت روح الثورة في إضراب الخمسين يوماً عام -١٩٣٦- والذي سقطت على إثره الحكومة واضطر الفرنسيون يومها إلى أن يمدوا أيديهم للتفاوض مع الكتلة الوطنية.

نشأته

ولد الشاعر شفيق جبري يوم الأربعاء ١٤شعبان عام ١٣١٤هجري، ما يوافق ١٨٩٨م، وكان أبوه تاجرا دمشقيا، وعلى عادة أهل زمانه أرسل إلى الكتاب فدرس القرآن وعرف الخط والحساب حتى بلغ السادسة من عمره، فأرسل إلى مدرسة اللعازاريين بدمشق، وبقي فيها تسع سنوات نال في أخرها الشهادة الثانوية ثم سافر إلى يافا والإسكندرية متنقلا مع أبيه من بلد لآخر، وفي الإسكندرية قرأ ديوان المتنبي وبعض المعلقات وشعر البحتري والشريف الرضي.

ثم عاد إلى دمشق -١٩١٨م- وتوظف في الدولة فأصبح رئيساً لديوان المعارف في أواخر الحرب العالمية الأولى سنة -١٩١٨- وكان ينشر المقالات والقصائد في الصحف وتمرس في كتابة الشعر حتى ملكه.

وعند إنشاء كلية الآداب الأولى سنة- ١٩٢٨- عين مدرسا فيها ووكيلاً لمديرها وألقى أروع المحاضرات عن الجاحظ والمتنبي، وانقطع عن الوظيفة خمس عشرة سنة ثم عاد عميدا لكلية الآداب ثم اختير عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وصار ينشر في مجلة المجمع أروع مقالاته ثم صار عضوا في اتحاد الكتاب العرب بدمشق، ومقرراً في لجنة النشر بالمجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة، وبقي عميدا لكلية الآداب إلى عام ١٩٥٨ حيث تقاعد ثم آثر أن يظل رهين منتزهه في بلودان يعابث الشعر والفكر إلى وفاته.

شخصيته وصفاته

وعن شخصيته هو بنفسه كتب ذلك في كتابه (أنا والشعر) و (أنا والنثر) فذكر أن من صفاته قلة الضحك، وقلة الكلام، وكان غالباً عليه طابع الخزن وكان كذلك طول حياته، أما حزنه وكآبته فناشئة عن كآبة دخلت إلى قلبه صغيراً، وأما قلة كلامه فناشئة عن كثرة تفكيره وتأملاته.

واشتهر بحبه للعزلة وابتعاده عن مخالطة الناس لشعوره الرقيق فالكلمة النابية والنكتة الجارحة تؤذيه فهو كما قال في شعره يصف نفسه وعزلته عن العالم:

تجافت عن الدهماء لم تحتفل بهم
ترى عبسهم بشراً وبشرهم عبسا
فما ألفت بالليل بارقة الدجى
ولا هي ناغت في رفيف الضحى الشمسا
ومالي وما للناس أبغي وصالهم
فما وصلهم نعمى ولا هجرهم بؤسا

أحب الطبيعة وحدثها، وأخذ بمفاتنها وهو خير من شعر بها وعبر عنها فوجد عندها كما قال راحة البال ومتعة القلب وهدوء الأعصاب.

وتأثر شاعرنا بالمتنبي والبحتري كثيراً فجاء شعره منمق بأسلوب متين جزل وكان نابعاً من عاطفة جياشة متقدة، وكذلك تأثر بابن المقفع فاقتبس عنه وضع اللفظ في موضعه، حتى صار له أسلوب خاص يعرف به، ونلخص صفاته بأربع كلمات اتسمت بها شخصيته خلال مراحل حياته، الالتزام الأخلاقي، وصدق الحس الجمالي، والعلم الواسع، والأسلوب المنطقي العملي.

قراءة في شاعريته

امتاز شاعرنا بالروح العالية، والخيال المصقول والأسلوب المشرق كما يقول بهاء

الديـن الزهدري في دراسته عن شفيق جبري وقـال: وتـبدو الذاتية قوية في كل سطر من سـطور مقالاتـه وكـتاباته وأشعاره، وطرق موضـوعات مختلفة وحاكى المتنبي والبحتري والشـريف الرضـي في شعره، وتمثل شعرهم المتيـن، وأختزن منه صوراً رائعة كانت تنفعه وتعينه كلما نظم قصيدة.

وفـي العشـرين مـن عمره بدأ بنشر قصـائده في الصحف والمجلات وأقتفى بشعره أثـار القدامى في نظم تلك القصائد بما تضمه مـن أغـراض ذلـك الزمان من مديح ورثاء وغـزل، وكأنه كان موصولا بنشأته بمن قبله من الشعراء.

وقـد عـرف شـفيق جـبري بشعره النضـالي كمـا عرف بشاعر الطبيعة وشاعر الرثاء.

شعره النضالي

خـاض الشاعر ميادين النضال كغيره مـن الشـعراء فجسـد بشـعره أماني العرب جمـيعهم فكان لا يؤمن بالقطرية فمدح العرب وافـتخر بهم وألمح للوحدة الشاملة فقال أبياتاً يجمـع فيها ثورة الشام مع ثورة مصر، ورأى أن العـرب لا ينهضـون إلا فـي ثورة عارمة فقال:

لله ثــورات تــبارك أهلهـــا
اثــنى علــيها الواحــد القهــار
فــي النــيل مــنها ضجة مــيمونة
حســنت بهــا مــن ربعــه الآثــار
ومشــى الضـجيج إلى الشام فرددت
اصــداءه الأنجــاد والأغــوار

وأشار للعراق في قصيدة أخرى:

أيــثور أهــل النــيل دون لهــاذم
وعلــى الفــرات لهــاذم وصــفائح

وعـندما دخـل الفرنسيون بلاد الشام وحطـوا رحلهـم فيها سنة -١٩٢٠- وضاع الحلـم الذي حلم به أهل الشام انبرى الشعراء يبكون حال بلادهم ويناددون ما حال إليه أمرهم من تفرقة ومذلة قال يومها شاعرنا يصف حال البلاد:

أيهــا الســائل عــن أربعــنا
إنمــا الأربــع صــارت دمــنا
لــيس فــي أفــيائها غــير فــتى
واجــف الأضــلع يشــكو الزمــنا
يرســل الأدمــع مــن أجفــنه
فيســلي بــالدموع الأجفــنا
فمــروج الشــام تشــكي ضــيمها
أيــن مــن يكشــف عــنها المحــنا؟

ولم تكن تمر حادثة في أي بلد عربي إلا وقال فيها شعراً.

وهكذا استمر شاعرنا بنظمه لأشعار النضال والثورة، وتحدث فيها عن بطولات العرب ففي مهرجان الشعر الأول بدمشق سنة -١٩٥٩- قال قصيدة موجودة في ديوانه نوح العندليب:

يادامي الجرح لا جرح ولاألم

الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم

امسح دموعك أم ماجت موائجها

فكل ثغر على الأيام مبتسم

تلك البطولات كالأهرام راسخة

فأين ماطمسوا منها وماهدموا

وفي أخر ديوان نوح العندليب نراه يرسم صوراً بطولية للرجال العظام وفي آخرها يطلق صحية جديدة في فلسطين بعد صيحاته ضد الأتراك والفرنسيين فيقول:

فأين رسول الله يشهد أمة

تئن أنين الطير من كل ذابح

فهل صيحة في العرب تبعث ملكهم

ألا ربما هبوا بصيحة صائح

وبعد أن صارت فلسطين همه وشغله في شعره قال قصيدته – ثورة العرب –

أيعيث اليهود في حرم القد

س مشاداً والنوم يأخذ منها

لفظتهم جوانب الأرض شذا

ذا فتاهوا القرون قرنا فقرنا

ضجرت منهم الشياطين والأنـ

س فأنى نحنوا عيهم أنى؟

احصدوهم حصد السنابل حتى

تتداعى صهيون ركنا فركنا

شعره في الطبيعة

عرف شاعرنا بإحساسه المرهف وقوي هذا الإحساس عنده بعزلته عن الناس وبخلوته مع الطبيعة فصارت تحدثه ويحدثها سمع مرة هديل الحمام فقال:

ناح الحمام على الغصو

ن فهاج معتلج الشجون

وصبا إلى مضض الهوى

وأنا صبوت إلى العيون

لكنه حبس الدمو

ع وماج دمعي بالجفون

وقد أختار الشاعر بلدة بلودان مصيفاً له حيث الإطلالة الجميلة على الروابي وفضلها على الغوطة الجميلة ولكن الغوطة لم تلق منه إلا التحية وقال فيها وكأنه يعذر نفسه لهجرنها:

قالت دمشق وقد ناجيت غوطتها
و مائج الروح في جنبي مطرد
أتترك الروض والأنغام تملؤه
وتنتحي البيد لاروض ولا غرد
ما تسمع الأذن حساً في مسارحها
كأنما الموت في أطرافها لبد

شعره الرثائي

بكى الشاعر الزعماء وأعلام الفكر وقد وفق في ذلك أكثر مما وفق في عواطف الطبيعية والحب ويعود ذلك لتأثره بالرثاء في الأدب العربي القديم الذي أتقنه وفي ديوانه الكثير من القصائد التي رثى بها كثيراً من الأعلام المؤثرين والزعماء المخلصين.

وفي قصيدته التي يرثي فيها الشريف الحسين بن علي سنة -١٩٣١- يقول فيها:

يا ابن النبي وما الأذان سامعة
فهل تلبي زحوفاً أنت داعيها
لما رأيت قلوب العرب واجفة
من الشدائد ما تسجو سواجيها
وأهل جلق بالأعواد عالقة
أعناقهم وسيوف القوم تفريها
مبعثرون عن الأوطان تلحظهم
عين المنية ماتغفو غوافيها

وقد وصف فيها حال العرب ومما قاسوه من حميم الترك ووصف فيها حال العرب في الشام وقد علق السفاح مشانقهم وشرد أحرارهم.

شفيق جبري والنثر

كان شاعرنا موصول النسب بموهبة الشعر والنثر معاً كان نثره جميلاً ينزل من النفس منزلة سهلة ، لأنه لا يتقعر بألفاظه ولايتنافر بكلماته وكان نثره متماسكاً قوياً بين جملة من بداية بحثه حتى نهايته، وله الكثير من المؤلفات النثرية التي ضمت مقالاته التي نشرها في الصحف والمجلات والمحاضرات التي ألقاها وكلها قيمة تحمل جمال الأدب ونراه في مقالته وطننا الروحاني قد سكب روحه بالوطن ومزج نفسه بالعروبة ومما جاء فيها:لم يعد الوطن على ماقرره أحد علماء الاجتماع، عبارة عن أرض الآباء والأجداد، الذين يتمم نسلهم حياتهم الأولى، ولكن الوطن إنما هو جملة تقاليد وأفكار وعواطف مشتركة تجعل أهل البلد الواحد يشعرون بأنهم إخوة..... الخ.

الخاتمة

هذه دراسة بسيطة لشاعر ملأ عصره شعراً ونثراً تمجيدا لوطنه الكبير وتعبيراً عن ذاته المتفردة، وإذا أطلق عليه مجازا شاعر الشام فإننا نطلق عليه شاعر الوطن وشاعر الأمة وشاعر الهم العربي.




شفيق جبري.. شاعر الشام

شعر: د. محمد الخوص

كتبت هذه الخواطر السريعة بمناسبة يوم ميلاد الأستاذ شفيق جبري شاعر الشام الكبير حيث ولد في دمشق ليلة الأربعاء ١٤ شعبان عام ١٣١٤ هجرية الموافق ١٩ كانون الثاني عام ١٨٩٧ ميلادية وتوفي فيها في شهر كانون الثاني أيضاً عام ١٩٨٠ ميلادية

إذا فاخــــــرتُ يومــــــاً بالشــــــآمِ
فلــن يَـروي سـوى جـبري مَرامــي
وإن فاخـــرتِ يـــا مصْــرٌ بشــوقي
فجَـبري فخـرُنا يــومَ التســامي
فـــرزدقُ عصـــرنا هـــو دون ريـــب
أتانـــا بعـــد هجعـــةِ ألـــفِ عـــامِ
دمشـــقُ أُمـــيّةَ الماضـــي اســـتعادت
لآلـــي الشِـــعرِ مـــن وادي الـــركامِ
أعادتْهـــا خـــلال شـــفيق جـــبري
فهامـــت بعـــد صـــمتٍ واعتصـــامِ
فمالـــي لا أُحيـــيكَ احـــتراماً
وأنـــت اليـــومَ فـــي دارِ الســـلامِ
وإن جـــاءَ اهتمامـــي بعـــد حيـــن
فعُـــذراً للـــمُتأخِّرِ باهتمامـــي
لمـــاذا لـــم تُجـــبْ هـــيّا أَغِثْنـــي
دعِ الأشـــعارَ تنـــبعُ باحـــتدامِ
أصَـــخْتُ إلـــيكَ أَسْـــمعْني رجـــاءً
فمـــا لـــي غـــيرُ شـــعركَ فـــي ســـقامي
لســـانُكَ مـــبدعُ الكَلِـــمِ المُقفّـــى
أيعـــيى أن يـــردَّ علـــى ســـلامي
تقـــدم هـــات كفّـــكَ امـــشِ نحـــوي
أكـــادُ أراكَ مُنتصـــباً أمامـــي
تُرتّـــبُ شـــكلَ قبّـــتك ازدهـــاءً
وأنـــتَ تبيـــنُ فـــي أبهـــى قـــوامِ
أرى عينـــيكَ تـــتجهان صـــوبي
فصـــافحني وأطْفـــئ لـــي أوامـــي
وإن خمنتنـــي أهـــذي مـــناماً
فدعنـــي لا تفقنـــي مـــن منامـــي







لمـــاذا يـــا زمـــانُ أخـــذتَ جـبري
ولـــم أعـــرفْهُ يـــا أَســـفي وذامـــي
علـــى بُعْـــدٍ بســـيط كـــان منـــي
يُجاورُنـــي وفـــي مـــرمى اغتنامـــي
وتحرمُنـــي ســـنا مـــرآهُ عمـــداً
فهـــل أُبـــدي لديـــك ســـوى ملامـــي
لمـــاذا يـــا شـــفيقُ أهـــيمُ دومـــاً
بمـــا أبدعـــتَ مـــن طيـــب الكـــلامِ
أُرتّـــلُ مـــا حبكـــت فيســـتبيني
ويُغرينـــي بحفـــظ والـــتهامِ
قطفـــتَ الشـــعرَ مـــن روضِ القوافـــي
قلائـــدَ مـــن يواقيـــت وســـامِ
وألقيـــتَ القلائـــدَ مـــن عُلُـــو
علـــى صـــدر الخلّـــود المُســـتهامِ
فـــراحَ يُعـــيدُها والدهـــرُ يُصـــغي
ويذروهـــا الصـــدى فـــوق الأكـــامِ
يقـــولُ بكـــلّ فخـــر كـــان عـــندي
أمـــيرُ الشـــعرِ يقطـــنُ فـــي عظامـــي
هـــنا مـــن ربـــعِ قـــرن كـــم تســـامى
هـــناً فـــي الشـــامِ محـــرابِ الكـــرامِ
أُســـاقيهِ العـــزيمةَ مـــن كيانـــي
ويَســـقيني القصـــائدَ كـــالمُدامِ
فـــوا لهفـــي وقـــد أُغرمْـــتُ فـــيه
أيكفينـــي التصـــبّرُ فـــي هيامـــي
شـــفيقٌ درّةُ الشـــعراء شـــأواً
يُشعشـــعُ كالمجـــرّةِ فـــي الظـــلامِ
ويخـــترق الـــزمانَ إلـــى الأقاصـــي
فجـــبري لا يُكَـــبّلُ بالحِمـــامِ
شـــفيق لـــم يمـــتْ مـــذ مـــات جســـماً
بـــل ابـــتدأ الحـــياةَ بـــلا قـــيامِ
منحـــتَ الـــناسَ بعـــد ســـنيّ جـــدب
كلامـــاً مـــثل أرِيـــاشِ الـــنعامِ
فهـــبّوا بعـــد أن كـــانوا نـــياماً
إلـــى قطـــفِ الفصـــاحةِ باعـــتزامِ







كلامُـــكَ كـــان مـــاءً سلســـبيلاً
يُـــروّي كـــلّ مُلـــتاعٍ وظامـــي
فتبكـــي إن قصـــدتَ رثـــاءَ شـــخص
بلهجـــتكَ المليـــئةِ بالقـــتامِ
وتُـــبهجُ إن ذكـــرت ســـنا عظـــام
وتصـــويراً لأحـــداثٍ جســـامِ
وتُعطـــي النـــاسَ عـــزماً ســـرمديّاً
إذا استرســـلتَ فـــي وصـــفِ الطغـــامِ
ورحـــتَ تصـــوغُ مـــا نالـــتْ فرنســـا
وتـــنعاها علـــى الأرضِ الحـــرامِ
جـــلاءُ المعتديـــنَ حَـــباكَ عـــزما
فـــثُرْتَ بهمّـــةِ الـــبطلِ الهُمـــامِ
تُرصّـــعُ كـــلّ نيســـان قصـــيداً
لإلهـــابِ الـــنفوسِ بـــلا ضِـــرامِ
وتُغـــري الســـامعينَ بكـــلّ عـــزٍّ
علـــى طلـــبِ الشـــهادةِ لا الجَّمـــامِ
(أَحُلْـــمٌ) لوحـــةٌ أبدعـــتَ فـــيها
وحرّكـــتَ الأُلـــوفَ بـــلا حُســـامِ
جعلـــتَ الطفـــلَ كالـــبركان يغلـــي
يُحـــرّكهُ الحمـــاسُ إلـــى الصـــدامِ
وارجعـــتَ الشـــيوخَ إلـــى شـــباب
فـــآلوا بعـــد عجـــزٍ كالســـهامِ
دخلـــتَ المَجْمَـــعَ العربـــيَّ عضـــواً
وتابعـــتَ الدراســـةَ بانـــتظامِ
كتبـــتَ الشـــعر واستقصـــيتَ نـــثراً
مجالـــيَّ الكـــتابةِ باحـــتكامِ
ألـــم تســـمعْ صـــدى الدنـــيا يُـــدوّي
رَمَيـــتَهما بمـــا لـــم يـــرمِ رامـــي
ملكـــتَهما بـــلا أيّ انـــتقاص
وسُـــقتَهما إلـــيكَ بـــلا زمـــامِ
ولـــم تـــنسَ الـــذي شـــغلَ الـــبرايا
بشـــرحٍ كـــاملٍ دون اقتســـامِ
فأضـــحى مالـــئَ الدنـــيا يُســـمّى
كمـــا أحببـــتَ أنـــتَ بـــلا لـــزامِ







ودنـــيا كاتـــب الـــبخلاء أمســـت
دُنـــى مَـــرَحٍ وجـــنّات ابتســـامِ
فقـــد صـــوّرتَ جاحظـــنا بعمـــق
وأحييـــتَ العظـــامَ مـــن الـــرُّمام
دخلـــتَ رحـــى الصـــحافة باقـــتدار
علـــى كـــلّ المحـــاورِ والمرامـــي
وصـــارَ لديـــكَ قُـــرّاءٌ كـــثارٌ
يفلّـــونَ الكـــتابةَ باضـــطرامِ
أخـــذتَ إمامـــةَ الإلقـــاء حقّـــاً
بفطـــنةَ عـــبقريٍ واحتشـــامِ
فـــتخرجُ كـــلّ حـــرف باغتـــناء
وتـــنطقَ فـــي نقّـــاء وانســـجامِ
خطـــابكَ كـــان كالـــبارود بأســـاً
بـــل الـــبَارودُ أخفـــتُ فـــي الغـــرامِ
فكنـــتَ تُزلـــزل الأجـــواءَ أجّـــاً
لإشـــعال الملاييـــنِ الطوامـــي
أتـــتكَ رئاســـةُ الآداب تحـــبو
وتـــرجوكَ العمـــادةَ باحـــترام
فصـــرتَ عمـــيدَها وعـــلا ســـناها
لإحـــدى عشـــرَ عامـــاً بالـــتمامِ
فأبدلـــتَ الدمـــا بـــدمٍ طهـــور
وأحييـــتَ المـــواتَ مـــن الحطـــامِ
ألـــم تـــرَ يومَهـــا طوفـــانَ نـــوح
فكنـــتَ الفُلْـــكَ فـــي المـــوت الـــزؤامِ
فرنســـا مـــن هـــنا وهـــناكَ جهّـــل
هـــناكَ تـــردّنا وهـــنا تحامـــي
نفضـــتَ عـــن الـــنفوسِ الـــيأسَ حـــتى
تقـــومَ بفعلهـــا دون انهـــزامِ
أســـاطينُ المعـــارف كـــم أحـــبّوا
بـــناءَ مُدرّجـــات للعظـــامِ
فكنـــتَ شـــفيقَ أولِ آخذيهـــا
ألســـتَ الصـــحوَ فـــي زمـــنِ النـــيامِ
أنـــا مـــا كنـــتُ أؤمـــنُ فـــي حياتـــي
بشـــيءٍ غـــير ديـــنِ الإختـــتامِ

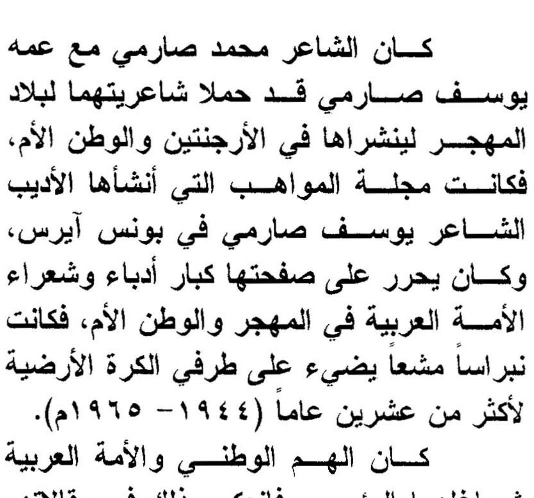






ورأيـــي فـــي الـــتقمّص كـــان كُفــراً
وبعـــدَكَ صـــارَ ركـــناً مـــن نظامـــي
ألَـــم تـــرَ أن شـــوقي فـــيكَ يحـــيا
وقـــد رامَ الـــتقمّصَ باكتـــتام
وأنـــتِ أيـــا بلـــودانٌ تغنـــي
بشـــاعرك الكبـــيرِ علـــى الـــدوامِ
أتـــاكِ لأنـــكِ الأبهـــى جمـــالاً
وأنـــكِ أنـــتِ فـــردوسُ الشـــآمِ
فبيـــنكما ازدهـــى ولـــعٌ غريـــبٌ
وإعجـــابٌ ســـما فـــوق الغـــرامِ
ولـــولا المـــوتُ لـــم يهجـــرْكِ يومـــاً
فكـــأسُ المـــوتِ يـــا ويـــلاهُ دامـــي
رددتِ الحـــبّ هـــذا فـــيضَ شـــكر
بمـــنحٍ عظيمـــناً علـــى وســـامِ
فأعطيـــتِ اســـمَهُ المشـــهورَ روحـــاً
أوانِ اخـــترت صـــرحاً للمقـــامِ
فهـــذي الـــثانوية لـــو تـــراها
تســـمّى الآن باســـمكَ يـــا إمامـــي
إذا شـــاهدتَ كهـــلاً كـــل يـــوم
طـــوى ســـبعين عامـــاً فـــي ســـلامِ
يـــروحُ إلـــى (أبـــو زاد) ويغـــدو
بقـــوةِ يـــافعٍ وخُطـــا غـــلامِ
تيقّـــنْ أن ذاك الكهـــلَ جـــبري
بقـــدّ شـــامخٍ دون انهـــدامِ
فـــإن راقبـــتَ هـــذا الشـــخصَ وقـــتاً
أراكَ العـــزمَ دومـــاً فـــي تنامـــي
إلـــيكَ رؤوفُ يـــا مـــن فـــيكَ أرنـــو
أخـــاكَ شـــفيق يخطـــبُ فـــي الـــزحامِ
أبـــثّكَ مـــن فـــؤادي كـــلّ شـــكري
فمـــا قصّـــرت يومـــاً فـــي الذمـــامِ
نشـــرتَ مؤلفـــات شـــفيقَ حُـــبّاً
بـــإعلاء الســـنا بيـــن الأنـــامِ
وجـــودُكَ فـــي حمانـــا كـــم روانـــا
فطـــيفُكَ فـــي المصـــايفِ كالغمـــامِ



قراءة في ديوان:

دروب الحلم.. للشاعر محمود صارمي.

بقلم:
أحمد سعيد هواش

كان الشاعر محمد صارمي مع عمه يوسف صارمي قد حملا شاعريتهما لبلاد المهجر لينشراها في الأرجنتين والوطن الأم، فكانت مجلة المواهب التي أنشأها الأديب الشاعر يوسف صارمي في بونس آيرس، وكان يحرر على صفحتها كبار أدباء وشعراء الأمة العربية في المهجر والوطن الأم، فكانت نبراساً مشعاً يضيء على طرفي الكرة الأرضية لأكثر من عشرين عاماً (١٩٤٤- ١٩٦٥م).

كان الهم الوطني والأمة العربية شاغلهما الرئيسي، فانعكس ذلك في مقالاتهم وقصائدهم وأحاديثهم، ومن يتصفح مجلة المواهب يجد ذلك وأكثر.

وإذا كانت الظروف لم تتح للشاعر الراحل يوسف صارمي، رئيس تحرير مجلة المواهب بأن يجمع شعره وينشره في ديوان بحياته، وبقي موزعا على صفحات مجلته المواهب، فالأمل كبير بأن يرى شعره النور قريباً وينشر في ديوان مطبوع يليق بصاحبه وذلك بهمة كريمته الدكتورة السيدة سعاد الصارمي ومساعدة محبي الشعر العربي الأصيل.

وقد مد الله بعمر الشاعر محمود صارمي وأصدر ديوانه: دروب الحلم الذي ألهب البعد عن الوطن شاعريته فانعكس ذلك في ديوانه هذا.. ولابد لنا في البدء من ذكر لمحة عن حياة شاعرنا محمود الصارمي صاحب الديوان:

* فقد ولد في قرية كفر جوايا من أعمال صافيتا عام ١٩٢٦م، في بيت أحب الأدب العربي

* في سنوات عمره المبكرة حفظ القرآن الكريم على طريقة الكتاتيب ودرس قواعد اللغة العربية، وعكف على مطالعة كتب الأدب والشعر.

* في الرابعة والعشرين من عمره أجبرته ظروف الحياة القاسية على الهجرة إلى الأرجنتين حيث التقى بعمه الأستاذ يوسف الصارمي (رحمه الله) صاحب مجلة المواهب التي كان يصدرها في العاصمة بونيس ايرس.

* عمل في المجلة آنفة الذكر، كما مارس بعض الأعمال التجارية.

* في عام ١٩٥٩م عاد إلى أرض الوطن، حيث عكف على ممارسة مهنة التجارة في مدينة صافيتا - حتى الآن - أمد الله بعمره.

* ألهب البعد عن الوطن في حنايا الشاعر حبّ الوطن والقومية العربية وهذا ما تستعرضه في بعض قصائده.

من أوائل قصائد الديوان: دروب الحلم، تحية للشاعر القروي، حيث أهدى الأخير ديوانه في عام ١٩٥٤م، فقال منوهاً بالشاعر القروي وعروبته؛ ومكانته في دنيا الأمة العربية:

أنت كالنّجم في السمو وكالبدر
إذا افتتر يمحق الظلماءَ
أنت كالعطر في ثفود الأزاهير
إذا ما عَوَجَتْ أنداء
أنت كالروض كالجداول سحراً
أنت كالبحر غضبةً هوجاءَ

ثم يفتخر الشاعر الصارمي بشاعريته شخصياً ويشيد بأجداده العرب الذين كانوا رواد للمجد العربي والسؤدد فقال:

أنا من ينشدُ الزمانُ أغانيه
لهيباً وثورة ودماءَ
قومي الأولون في كُلِّ صقيع
ملأوا الكونَ عزّةً وإباءَ

قطعوا الدهر للمعالي صعوداً
وامتطوا المجد ذروةً شماءَ

لذا فشاعرنا يدع الشاعر القروي للعمل يداً واحدة ليُعيد المجد العربي الغابر:

ليس إلا هُنيْهةً نرجع الدهر فتياً
والحالكات سناء
ونعيد الأرض الجديبة خصْباً
والصحارى خمائلا فيحاء

وفي زمن النكسات والنكبات والتراجع، نستنجد بأبطال الأمة العربي الميامين القدامى، ومن أجدر بالبطل صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين وفاتح القدس الشريف..؟؟ الذي رد الصلبيين على أعقابهم وهم يجرون أذيال الهزيمة والخزي:

راعَ البطولة أن تكون ذليلة
بيد العدى فتشبثت (بصلاحِ)
جرّدْتَ سيفك صارماً لا ينحني
ووثبت وثبةً فاتكٍ مجتاحِ
ما كنت حين قهرتهم إلا فتىً
صحِبَ المكارم من ندى وسماحِ

إنه يعيد سيرة أجداده أبطال الأمة العربية العظام:

خلق الفتى العربي إرثُ خالدٌ
طلعت شْمائله بألف صباح

وفي الثالث والعشرون من تموز لعام ١٩٥٢م اندلعت ثورة قومية وطنية بالقطر المصري الشقيق، نهضت بأكبر دولة عربية (مصر) من ثباتها، وبعدها عن الهم القومي وجعلتها دولة رائدة في الواجهة العربية فقال مخاطباً مصر ورجال هذه الثورة المجيدة:

يـا مصـر: يـا أم العروبة مذ طغت
لُحَـجُ الحـوادث ريعـت الأولاد
فابقـي رعـاك الله يـا ابـنة يعرب
فخـراً تطيـب لـنا بـه الآمـاد

وقـد خـص الشاعر قسماً من ديوانه لـرثاء الأحبة والأصدقاء ورجـال الفكر، والشخصيات الوطنـية، فها هو يرثي شقيقه المرحوم خضر عمران صارمي فقال واصفا ما يتمتع شخص شقيقهُ من خلق رفيع كريم:

سـما بـك العلـى خُلقٌ كـريمٌ
فمـا أبهـاك أبـيض سـمْهريًا
حُبيْـتَ المجـد أصـيد يعربـيًا
كمـثل الـبدرُ يحتضـن الـثريا
فكـم لـك مـن يـد فاضـت عطاءً
بـلا مَـنٍّ فكنـت الأريحـيا

وفـي عـام ١٩٩٩م فقـدت الساحة الأدبية شاعراً كبيراً ملأ الساحة تغريداً وحكمة ووطنـية ألا وهو الشاعر الألمعي حامد حسنٍ رحمـه الله. فقـال الشـاعر الصـارمي راثياً الشاعر الحسن:

أيـا شـاعر الدنـيا رودك سـاعة
فـإنك أنـت الألمعـي المفضـل
سـماؤكَ إشـراق وصـبحك أبلـجٌ
وشـعرك إبـداع وأيّ تـرتُل

ومـن أجدر بالرثاء من الشاعر الكبير صاحب المواهب المرحوم يوسف الصارمي عم الشـاعر ورفيق دربه، فقال راثياً العم الحبيب الـذي شـاركه فـي السراء والضراء في دنيا المهجر (الأرجنتين) وقامت على أكتافهما مجلة المواهب الغراء:

آه يـا عمـي وكـم مـن مـنّة
لـك عـندي. ثقّفـتْ لـي أدبـي
كنـت نعـمَ العـمُّ لـي فـي غربتي
تلتقينـي حَدِبـا بـالهُدُب
قـد عشـقتُ العـزّ إذ علمتنـي
أن أسـنى العـزّ عـزّ العـرب

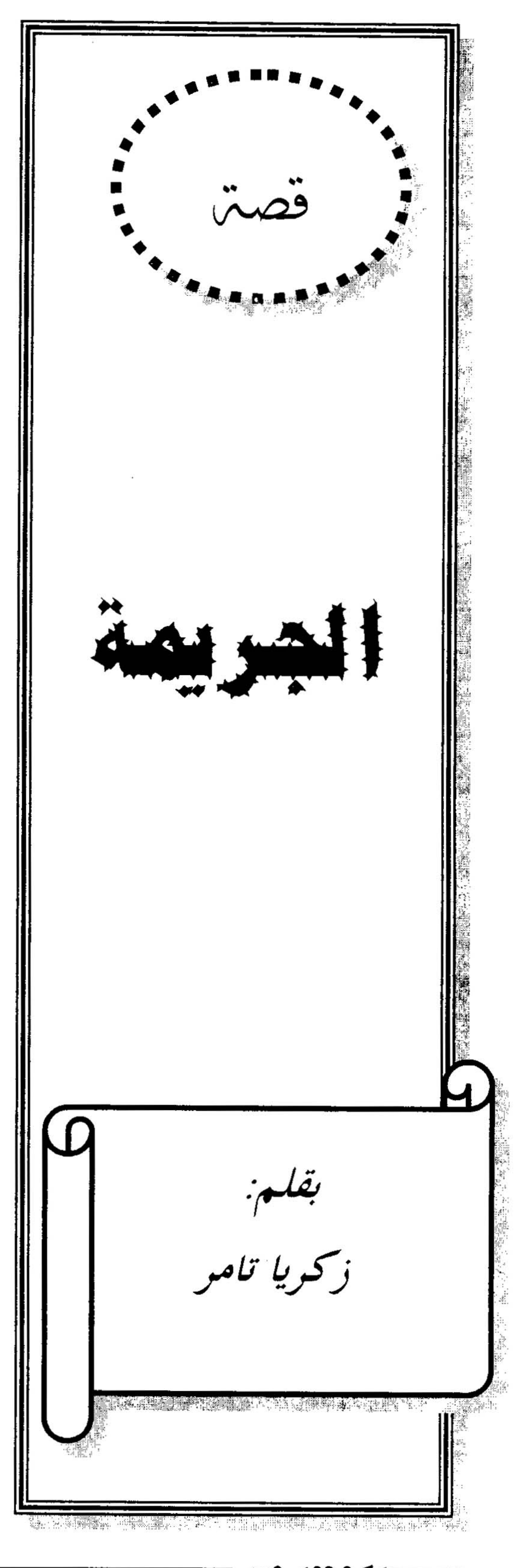
ولمجـاهدي فلسـطين الذيـن قادوا المقاتليـن علـى بطاح فلسطين مدافعين عنها ضـد العدو الصهيوني المغتصب نصيبٌ، هاهو شاعرنا يرثي الشهيد عبد القادر الحسيني فقال مخاطباً فلسطين، وشهيدها الحسيني:

يـا فلسـطين والدمـاء سـالتْ
تمشّـتْ علـى الـثرى اقحوانـا
والجـراح التـي سـكبت شـذاها
خضـبت جدنـا فأذكـتْ إبانـا
يشـهد الله يـا فلسـطين أنـا
مـا فقدنـا بعزمـننا الايمانـا
موكـب للشـهيد عـبر السموات
يناجـي يدربـه الـرحمانا

ويبقى الوطن الأم الهاجس الذي يكون حاضراً في ضمير المغترب ومهما طال غيابه. لا بـد مـن عودة للوطن الأم الذي درج طفلا علـى تـرابه وتظلـل تحـت شجرات غاباته، وشـرب مـن صافي مائه، فقال مبرراً عودته لوطنه عام ١٩٥٩م:

سـأعود يـا أمـي إلى روض الصبا
فتعـيشُ أحلامـي ويهـنأ بالـي
سـأعود للعيشِ الـذي أرضعتني
فـيه الحـنان وخمـرةَ الآمـال
سـأعود والشـهبُ الفتـية تزدهـي
وَقرابعـي سـحْريّةَ الآصـال
سـأعود يـا أمـي إلـيك فتنطفـي
غُصـصٌ ويخصـب فـي يديك خيالي

هنيـئاً لشـاعرنا محمـود الصارمي بسـلامة العودة. وإتحافنا بأغاريده للوطن الأم والأمة العربية التي ترد كيد الأعداء. بمساعدة البررة من الأبناء.



كان سليمان الحلبي يمشي بخطى متئدة مبتهجاً بالهواء الذي يهب فيما حوله مسقطاً الأوراق الصفراء من الأشجار المنتصفة على جانبي الشارع، وكانت يداه قابعتين في جيبي بنطاله كطفلين نائمين. وحين توقف لحظة عن السير ريثما يشعل سيجارة، دنا منه رجلان، وجهاهما متجهمان. وطلبا من سليمان الحلبي هويته بلهجة صارمة. وارتبك إذ عرف مهنتهما، وقد كانا طويلي القامة، قسمات وجهيهما متشابهة إلى حد عجيب، وأعاد الرجلان إلى سليمان أوراق هويته ثم طلبا منه مرافقتهما، فأطاعهما دون تفكير، وسار وهو يقول لنفسه:

"لا بد أن ثمة سوء تفاهم"

واقتاده الرجلان إلى مخفر غير بعيد، وادخلاه إلى غرفة لها ثلاثة نوافذ مفتوحة للشمس والهواء والسماء، وكان يجلس في صدر الغرفة، رجل ذو ثياب سوداء، أمامه مكتب حديدي، تكومت على سطحه أكداس من الورق الأبيض. وقال سليمان لنفسه:

"هذا رجل أسود"

وقال الرجل الأسود متسائلاً:

- هل أنت سليمان الحلبي..؟

فأحنى سليمان رأسه بالإيجاب دون أن يتفوه بكلمة، وتناول الرجل الأسود ورقة بيضاء موضوعة على المكتب، وطفق يقرأ برتابة وكسل:

"في ليلة السادس من حزيران شاهد سليمان الحلبي، حلماً قتل فيه الجنرال كليبر.."

وتوقف الرجل عن القراءة، وتطلع إلى سليمان الحلبي بعينين صارمتين، بينما تحول الرجلان إلى تمثالين من حجر،

متسـمرين قرب إحدى النوافذ. وكانت المدينة خلف النافذة.

وتسـاءل الـرجل الأسـود مخاطـباً سليمان:

- هل هذا صحيح..؟

غمغم سليمان مستنكراً:

- لا لا. أنا لا أعرف الجنرال كليبر.

فالتفـت الرجل الأسود نحو الرجلين، وقال لهما:

- أحضرا الشهود.

ولـم يتحركا غير أن باب الغرفة فتح بعد لحظات، ودلف إلى الداخل ثلاثة أشخاص، ثـيابهم معفرة بالتراب ووجوههم صفراء كأن أصـحابها عاشوا مئات السنين في قبو يمقت الشـمس. وعرفهم سليمان على الفور، وكانوا رجلاً هرماً وامرأة كهلة في مقتبل العمر.

وقال الرجل الأسود:

- ليتقدم الشاهد الأول.

وابـتعد الهـرم منفصـلاً عن المرأة الكهلـة والفـتاة، واقـترب من مكتب الرجل الأسـود، ووقـف أمامـه محني الظهر، وقال بصـوت كأنه منبعث من اسطوانة عتيقة تدور بتثاقل تحت ذراع الحاكي:

- فـي لـيلة السـادس من حزيران شاهدت الحلبي يقتل الجنرال كليبر.

فقاطعه سليمان هاتفاً:

- أبي...!!

فلم يأبه الهرم له، وتابع كلامه قائلاً:

- أبصـرته يطلـق من مسدس ضخم سـبع رصاصات اخترقت جسد الجنرال وانبثق الدم من سبعة ثقوب.

وكـان الحـزن في تلك اللحظة فارساً يمتطـي صهوة جواد غير مروض، وقد وطأت سناكبه لحم سليمان بينما غرس الفارس سيفه فـي القلـب تماماً، ولكن سليمان لم يمت إنما سمع الرجل الأسود يقول:

- الشاهد الثاني.

وتقدمت المرأة الكهلة، ووقفت بجانب الرجل الهرم، وقالت:

- رأيـته يقـتل الجـنرال، كان يحمل فأسـاً، وقد رفعها إلى الأعلى، وأهوى بها بكل قوته فشطر الرأس إلى قطعتين، وسقطت الجثة قربـي، واسـتطعت رؤية النخاع ممزقاً خارج الجمجمة المهشمة.

وأشـارت نحو سليمان الحلبي بإصبع لا ترتجف، وقالت:

- هذا هو القاتل.

فتمتم سليمان الحلبي بحسرة:

- أمي... أمي.!!

فرمقته الكهلة بقسوة، وقالت له:

- أمك امرأة واحدة فقط.

وتذكـر سليمان يوم كان صغير السن يلعـب في الزقاق، ملطخاً ثيابه بالطين، فوقفت أمه على عتبة باب البيت، وكشفت عن صدرها الشديد البياض، وقالت له منادية بحنو: "تعال.. تعال"

وقال الرجل الأسود:

- الشاهد الثالث.

وتطلـع سـليمان الحلبـي إلى الفتاة بـنظرات اسيانة، ولـم تتحرك الفتاة، فدمدم الرجل الأسود بغضب:

- الشاهد الثالث .... ليتقدم.

وظلت الفتاة متجمدة في مكانها غير أنها بدأت بالكلام قائلة:

- رأيته راكباً سيارة، دهست الجنرال، ومرت فوقه عدة مرات حتى تحول إلى لحم لا شكل له.

وصاح سليمان الحلبي:

- ماذا حدث يا أختي..؟! ألم أتركك في البيت، وقد طلبت مني أن أشتري لك مشطاً..؟!

وأخرج يده من جيبه حاملة مشطاً أسود اللون، وقال الرجل الأسود:

- لينصرف الشهود.

ووضع الرجل الأسود سيجارة بين شفتيه، وحين رفع يده نحو السيجارة حاملة عود الثقاب المشتعل، لاحظ سليمان أن يد الرجل الأسود غريبة فجلدها كثير التجاعيد فكأنه جلد سرطان ميت ظل زمناً مديداً تحت شمس قاسية.

ونفث الرجل الأسود دخان سيجارته، وتابعه بنظراته بينما كان يتلوى صاعداً في جو الغرفة ثم يتلاشى بتكاسل، وقال لسليمان:

- هل سمعت ما قيل..؟ إن الأدلة على جريمتك ثابتة.

- لم أعترف بشيء.

- اعترافك ليس مهماً. لقد اعترف غيرك بذنبك.

- أنا بريء...

فتجهم وجه الرجل الأسود، وقال بصوت بارد وقاس:

- لماذا ولدت ما دمت بريئاً..؟ جئت إلى هذا العالم كي تهلك وستهلك دون احتجاج، أنت مجرم، وكنا نراقبك منذ أمد طويل فالناس المشبوهون نعرفهم بسرعة ولا يستطيعون خداعنا.

وتناول الرجل الأسود أوراقاً بيضاء من على سطح المكتب، وأخذ يقرأ ما كتب فيها:

- في الثالث من نيسان في الساعة الحادية عشرة وثلاث دقائق تطلع سليمان الحلبي إلى القمر، وقال لنفسه: "القمر سعيد لأنه لا يعيش في مدينة حاكمها الجنرال كليبر".

وتألق القمر في مخيلة سليمان الحلبي، وكان قمراً أبيض تهرول نحوه سحب قرمزية.

- في يوم الحادي عشر من مارس في الساعة الثامنة صباحاً فتح سليمان الحلبي أبواب أقفاصه وأطلق سراح عصافيره.

وتذكر سليمان رغبة في البكاء اجتاحته بينما كانت العصافير في بدء انطلاقها عبر الفضاء الأزرق ترفرف بأجنحتها بارتباك واضطراب.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثاني من حزيران خطر في ذهن سليمان الحلبي أن العالم سيكون سعيداً لو هلك بعض الأشخاص. ورمى الرجل الأسود الأوراق على المكتب بحركة ساخطة، وقال:

- ألم أقل لك أن أمثالك لا يستطيعون خداعنا..؟

وظل سليمان صامتاً وقد استغرب أن ينمو في أعماقه شعور حقيقي بالذنب ولكنه كان في الوقت نفسه شديد الاقتناع ببراءته.

وابتسم الرجل الأسود، ولعق بلسانه شفته السفلى، وقال:

- ستعدم في الساعة السادسة.

فألقى سليمان نظرة سريعة على ساعته فألفاها توشك أن تصبح السادسة، فانتابه الهلع. ورفض تصديق ما حدث حوله، واعتبره مجرد حلم سيصحو منه بعد لحظات على هزة من يد أمه وسيسمع صوتها.

قال الرجل الأسود بتشف:

- ستعدم.

- ألن أحاكم..؟!

فضحك الرجل الأسود، وقال:

- انتهت المحاكمة، أنا القاضي.

وتناهى إلى مسامع سليمان صفير قطار، لا بد أن القطار يهدر الآن ماراً تحت الجسر قاذفاً دخانه في سحابة صغيرة لن تعيش طويلاً وستضمحل أثر ابتعاد القطار.

- هل سأموت شنقاً..؟؟

- لا.

- هل سيطلق النار علي..؟؟

- لا

- هل سأحرق..؟

- لا.

- هل سأدفن حياً في التراب..؟

- لا.

وأشار إلى الرجلين قائلاً:

- هيا نفذا الحكم بالإعدام.

الساعة الآن هي السادسة تماماً. والمدينة مستسلمة بفتور لضياء الشمس الآفلة، وكانت كامرأة ترغب في النوم قليلاً بعد أن أنهكها العمل لأجل أولادها.

وعري سليمان الحلبي من ملابسه كلها، ولم يخجل من وقوفه عارياً عرياً كاملاً أمام أعين الرجال الثلاثة. وكانت السيارات تعبر الشوارع وهي تزعق بأبواقها عند المنعطفات. وأخرج الرجلان من خزانة خشبية مدية كبيرة، ثم ألقيا سليمان على الأرض، ولم يحاول المقاومة.

وكان بجانب الرجل الأسود، منضدة قصيرة القوائم، ملصقة بالحائط، يقبع فوقها مذياع صغير، مد إليه الرجل السود يده. وبعد قليل انسابت منه أغنية لامرأة، صوتها مفعم بالعذوبة والشجن، ويتلاقى فيه الربيع والمطر والحنان العارم.

أنصت الرجلان قليلاً للأغنية ثم تحولا إلى جلادين، وبترا أصابع اليد اليمنى بالمدية، فصرخ سليمان متألماً، وتدفق الدم. خمس أصابع كانت ملكاً لسليمان الحلبي، وقد صافحت الأصدقاء ولمست باشتهاء لحم النساء، وكان باستطاعتها في لحظة غضب خنق مخلوق ما.

قال الرجل الجلاد لزميله:

- يالها من أغنية..!! ماذا تغذيت..؟؟

فأجاب الرجل الآخر:

- حساء وقليلاً منٌ الخبز، أسناني تؤلمني.

- مسكين

وأشعل الرجل الأسود سيجارة ثانية، وتركها معلقة بين شفتيه لتحترق على مهل.

قطع ساعد سليمان، فتأوه وأطلق صرخة حيوان، صرخة طويلة مبحوحة. ولقد كان سليمان يحلم بأن تنام الفتاة التي يحبها على ساعده لا على وسادة محشوة بالصوف أو القطن.

قال أحد الرجلين بينما كانت أصابعه تلتف حول مقبض المدية وكأنها تتوق لأن تصير قطعة منها:

- لـيلة الأمـس شـاهدت فيلماً وكان سخيفاً.

- كل الأفلام سخيفة في هذا الأسبوع.

وكانـت أغنـية المذياع تصعد وتبوح بالعذاب المر الذي يبقى إثر اندثار الحب.

واضمحل مرفق سليمان. وكان مرفقاً يتكـئ علـى حواجز الأنهر ومناضد المقاهي ويلكز الأصدقاء.

وجـثا أحد الرجلين على ركبتيه، وبتر الـذراع اليمـنى كلها بحركة سريعة بينما كان الـرجل الثانـي يمسـك بسـليمان لمنعه من الحـركة، ولم يحاول سليمان الحلبي المقاومة إنمـا كـان يـنقض كلما مست المدية لحمه، ويـتلوى علـى الأرض الناعمة الملساء بينما الدم يتابع تساقطه ذا الإيقاع المكتئب.

وفتحت دور السينما أبوابها، وغادرها روادهـا بخطى متثاقلة. وبترت ذراع سليمان اليسرى. ولو كان سليمان الآن متسولاً يمشي فـي الشوارع لاستدر الشفقة ولانهمرت النقود علـيه فهـو بلا ذراعين ولن يستطيع معانقة امرأة، وإذا جاع فمن سيضع اللقمة في فمه..؟ وكـان الـرجل الأسود يبتسم منتشياً بالأغنية المنبعثة من المذياع.

تـابع الـرجلان عملهما، وابتدأ جسد سليمان الحلبي ينقرض متضائلاً رويداً رويداً، وكانـت الأعضاء المقطوعة تلقى جانباً. وكان الـناس فـي الشوارع يسيرون على الأرصفة، وبعضـهم يقـف قليلاً أمام واجهات المكتبات متطلعاً إلى عناوين الكتب والجرائد.

كانـت أصوات بائعي أوراق اليانصيب تتصـاعد مطاردة المارة بإلحاح: (ستربح مئة ألف ليرة).

وكانـت الباصات تواظب على المسير متوقفة بين الحين والحين في أمكنة معينة.

قاتل الرجل الأسود مخاطباً الرجلين:

- لننته بسرعة لدي موعد.

وتخـيل الرجل الأسود بيته. لا بد أن ضـيوفه ينـتظرون مقدمـه ولا بد أن زوجته ترحب بهم، وتقدم إليهم فناجين القهوة.

كان الرجلان في تلك اللحظة متغضني الجبين، يداهما مملوءتان بالدم.

وقال الأول الممسك بالمدية:

- إلى أين تنوي الذهاب بعد العمل..؟؟

- إلى المقهى.

- أنـا سأذهب إلى البيت. سأقرأ قليلاً من الشعر ثم أنام.

ووضـع حد المدية على عنق سليمان الحلبـي، وأغمـض سليمان عينيه بينما كان يحـس بنصـل المدية يلامس حنجرته ويوشك علـى ذبحهـا، وشـاهد نجومـا تبزغ وكأنها عصافير ميتة.

جمع الرجل الجلاد قوته، وضغط على المدية، فاخترقت اللحم والعظم اللدن، وفصلت الـرأس الـذي تدحرج مبتعداً عن قطعة اللحم الباقية، وكانت قلباً وكتفين. ظلت عينا سليمان الحلبي مفتوحتين، تطل منهما نظرة بلهاء.

نهض الرجل الأسود، ووضع في جيبه علبة السجائر ثم سار متجهاً نحو باب الغرفة، وعـندما أمسـك بمقـبض الـباب التفت نحو الرجلين وقال لهما:

- نظفا الغرفة قبل ذهابكما.

وعـندئذ تذمـر الـرجلان بأصـوات مرتفعة.




حظي من الدنيا..

شعر : جورج يوسف شدياق – فنــزويلا

فجــراً أرى خلــف المــدى أمْ غَيْهـــبا
أمضـــي وعُمــري لــم يُلـحْ لــيَ كوكـــبا
أيـــبشُّ شـــعري والجـــراحُ عصـــيّةٌ
وأقـــولُ أهـــلاً بـــالعذابِ ومرحـــبا
مـــزق الحـــنايا مُـــذ نأيـــتُ عـــن الحمـــى
صـــدري علـــيها مـــن أســـاهُ تحدّبـــا
وطنـــي أتـــنكرُ لوعتـــي يومـــاً وهـــلْ
تنســـى غـــداً مـــن فـــي هـــواكَ تعذبـــا
مـــن أيِّ عهـــد كـــان حـــبكَ مذهبـــي
أو مـــا تخـــيّرتُ العـــروبةَ مذهـــبا
قـــد زادنـــي هجْـــرُ الـــربوعِ تماســـكاً
بـــثرى بـــلادي، والـــرجوعُ تصـــلّبا
هـــذي الـــثلاثون العجـــافُ مَضـــتْ سُـــدى
خلـــف الـــبحارِ، وإثـــرها ســـتٌ هـــبا
هـــذا أنـــا.. وســـنينُ عمـــري أدبـــرتْ
لـــم يـــبقَ منـــي غـــير أطـــلالِ الصـــبا

* * *

مازلـــتُ أرقـــبُ مـــن بـــلادي نفحـــةً
عربـــيةً تُحيـــي الفـــؤادَ المُتعَـــبا







حظـــي مـــن الدنـــيا خـــريفٌ قـــاحلٌ
فمـــتى أرى عمـــري ربـــيعاً مُخصـــبا
مـــا قـــيمةُ الـــتغريدِ والـــدمُ مـــن حشـــا
وطنـــي الـــذي أهـــوى ثـــراهُ تصـــببا
كـــمْ شـــاعرٍ والـــروحُ غـــرقى بالأســـى
قـــد أرقـــصَ الكـــونَ الحزيـــنَ وأطـــربا
ذوبٌ مـــن الشـــعرِ المضـــيءِ أُحـــيلهُ
شـــعراً شـــجياً مـــا أرقَّ وأعذبـــا
وإذا أبـــاحَ البغـــيُ حـــرمةَ موطنـــي
أرســـلتُ حرفـــيَ دامـــياً مُتلهّـــبا
أصـــليتهُم مـــن غربتـــي بلظـــى يـــراعٍ
ثائـــرٍ هـــزَ العـــداةَ وأرعـــبا
بيـــن الجـــراحِ وبيـــن أشـــواكِ الـــنوى
أســـلمتُ ذيّـــاك الـــنديّ ليُصـــلبا
أهـــواكَ يـــا وطـــنَ الجـــراحِ ومـــع دمـــي
أجريـــتُ حـــبَّك سلســـلاً فـــتذوّبا
أرنـــو إلـــيكَ وفـــي المآقـــي دمعـــةٌ
تجـــري علـــى خـــدِّ الحـــروفِ لـــتُعربا
أو مـــا احتضـــنتُكَ رغـــم أعـــباءِ الـــنوى
أو لـــمْ تـــزلْ رغـــم التنائـــي لـــي أبـــا
محَـــنُ العـــروبةِ قـــد أذابـــتْ مُهجتـــي
وأنـــاخَ صـــدريَ همُّهـــا فاحدودبـــا







فعـــلامَ لا أطـــوي الهمـــومَ مُغـــرّداً
لحـــناً كأنـــاتِ الغـــروبِ مُشـــببا

* * *

الغـــيدُ تســـألني عـــلامَ هجرتـــنا
فأجبـــتُ قلبـــي مـــن أســـاهُ ترهّـــبا
خلـــوا الملامـــةَ فالعـــتابُ أمضّـــني
شـــلاّلُ حبـــي فـــي الحشـــا لـــنْ ينضـــبا
للحـــبِّ والأحـــبابِ أفـــتحُ أضـــلعي
رُحمـــاك لا تنشـــبْ بصـــدريَ مخلْـــبا
قلمـــي يُســـائلُ أدمعـــي مُستفســـراً
ويطـــلُّ مـــن خَلَـــلِ الأســـى مُســـتغربا
ذهـــبَ الشـــبابُ ولـــمْ تـــزلْ لـــي صـــبوتي
حُـــبّان فـــي جنـــبات قلبـــي أخصـــبا
بيـــن الجوانـــحِ بعـــدُ ينـــبضُ خـــافقٌ
صـــبٌّ جعلـــتهُ للواعـــجِ ملعـــبا
مـــن قـــال لا يهـــوى الغوانـــي شـــاعرٌ
وهـــو الـــذي بجمراتهـــنَّ تلهّـــبا
فلقـــدْ هويـــتُ الغـــيدَ غضّـــاً يافعـــاً
ولســـوفَ أهواهـــنّ كهـــلاً أشـــيبا
الحـــبُّ ســـرٌّ فـــي فـــؤادي كامـــنٌ
أبـــداً أخـــافُ علـــيه أن يتســـرّبا







أنزلـــتهُ صـــدري وقلـــتُ أقـــمْ بـــه
قلبـــي بمـــنْ أهـــواهُ طـــابَ فأعشـــبا
أهـــوى كطفـــل.. مـــا مـــررتُ بغـــادة
إلاَّ وضـــاقَ بصـــدرهِ قلـــبٌ حـــبا
أرنـــو إلـــى الوجـــه الجمـــيلِ فأنثنـــي
وأغـــضُّ طرفـــي خـــوفَ أنْ يتعتّـــبا
كأســـي تصـــفقُ بالشـــجونِ فـــلا تقـــلْ
أولـــى بكأســـكَ أن تُـــراقَ لتُشـــربا
حاســـبتُ نفســـي مُـــذْ تبنيّـــتُ الأســـى
مـــنْ ذا بحـــقِّ الحـــبِ مثلـــي أذنـــبا
لـــو شـــئتُ خـــطَّ قصـــيدةً غزلـــيةً
قلمـــي المُدمّـــى مـــن مآســـينا أبـــى
بالعطـــرِ يـــندى مـــا كتبـــتُ قصـــيدةً
أولـــى بهـــا بدمائـــنا أنْ تُكتـــبا
فـــإذا غـــداً شـــفّتْ أضـــاميمُ الدُجـــى
وتـــلألأتْ شـــمسُ الضْـــحى فـــوق الـــرُبى
أغمـــدتُ ســـيفي بعـــد طـــولِ جهـــادهِ
ورجعـــتُ أنشـــدُ مـــن حســـاني مأربـــا
يـــا ليـــت أفـــرغُ والـــزمانُ ينوشـــني
مـــا فـــي الكـــؤوسِ مـــن الشـــجونِ ترسّبا
لا تغـــتربْ.. أُســـدي إلـــيكَ نصـــيحتي
قـــد مـــاتَ مـــن هجـــرَ الحمـــى وتغـــرّبا





عالم كبير، وعلم من أفذاذ علماء دمشق، أقبل على العلم إقبالا منقطع النظير. وترك سفاسف الحياة الدنيا فعاش في عزلة عن طلابها، وانهمك في البحث والتنقيب والآثار فعاش حياته وحيدا. ولكن بيته كان كعبة يحج إليها طلاب العلم والمعرفة، وإذا كان المقياس لدى العلماء في معرفة بعضهم في الكيف والكم، فإنه كان الأول بين أقرانه فيهما. وقد حاز قصب السبق في نهل العلم ونشره، وقراءة الكتب وتأليفها، والبحث عن الآثار ومنادمة الأطلال.

مولده نشأته

ولد عبد القادر بن أحمد البدران في بلدة دوما القريبة من دمشق في سنة (١٢٨٠ هـ - ١٨٦١م) من أسرة حجازية هاجرت إلى بلاد الشام وسكنت بلدة دوما. ويرجع بنسبه إلى قبيلة بني سعد التي تقيم قرب مكة. والتي رضع فيها رسول الله من حليمة السعدية وترجع هذه القبيلة إلى جدهم سعد بن بكر بن هوازن من جذم عدنان.

وفي مسقط رأسه دوما أخذ مبادئ القراءة والكتابة عن الشيخ بن محمد عدس في جامع المسّيد، وأخذ عن جدد لأمه الشيخ أحمد بن مصطفى الشهير بابن نعسان. كما أخذ عن الشيخ محمد بن عثمان الحنبلي المشهور بخطيب دوما، وكان عالما عاملا جامعا، ثم هاجر إلى دمشق فأخذ عن الشيخ سليم العطار الشافعي ومحمد الطنطاوي الأزهري، وعلاء الدين (ابن عابدين) الحنفي، والشيخ أحمد حسن الشطي الحنبلي. والشيخ بدر الدين الحسني المحدث، وعن شيخ الأزهر محمد الأنباني وغيرهم. وقد رافق الأمير عبد القادر الجزائري في رحلته إلى أوروبا والمغرب، حيث دامت هذه الرحلة ستة أشهر زار خلالها إيطاليا وفرنسا والمغرب وتونس والجزائر، واستفاد من هذه الرحلة برفقة الجزائري أن يتلقى كبار المفكرين والعلماء والسياسيين، وكتب قصيدة همزية إثرها يقول فيها:

مـــن قـــال إن الغـــرب أحسن منظراً

فلقــــد رآه بمقلـــــة عمــــياء

وكان في بداية طلبه للعلم متردداً على كتب الفلاسفة كابن سينا والفارابي وابن رشد، ويـبدو أنـه لاقـى مالا تشتهيه نفسه التواقة لمعرفة الحقـيقة، فانحرف عنها إلى الكتاب والسنة، وانهمك في دراسة علومهما تاركاً ما كان عليه الفلاسفة قائلا:

"ثـم جعلت شغلي كتاب الله وتفسيراً، وسنة نبيه المختار قراءة وشرحاً وتحريراً"

منهجه الفكري

قرأ العلامة عبد القادر ما وقعت عليه يداه من كتب في الفقه والتفسير والحديث، وقد سـمع من كبار العلماء في عصره ممن كانوا بدمشـق أو الـتقاهم فـي رحلته إلى أوروبا والمغـرب ومصـر، فأصبح موسوعة متعددة الجوانـب، وكـان في بداية نشأته العلمية يقلد الإمـام الشافعي في فقهه، ولكنه بعد أن تبحر فـي العلوم وقرأ الأصول والصحاح والمسانيد والسـنن أصبح حنبلـيا، لأنـه رأى أن هذا المذهـب أقـرب إلى السنة وأشد تمسكا بها، وعمـل بعقيدة السلف الصالح في نصر السنة وقمع البدعة، وتسفيه آراء الدجاجلة المبطلين الذين ألفوا الجمود، وركنوا إلى الكسل، فأحبه علمـاء السنة ودعاة التجديد، وخاصة علماء نجـد الذين قاوموا المتصوفة ونشروا السلفية في الجزيرة العربية، وصدّروها إلى الكثير من دول العالم الإسلامي، فأصبح الشيخ عبد القادر مـن خـلال مؤلفاتـه وشروحه على المتون وتعليقاته على الكتب من كبار علماء المسلمين فـي العـالم الإسلامي، فراسله العلماء وطلبة العلـم مـن كل مكان، واعتبروه إمام الحنابلة ومفتـيهم في بلاد الشام، حتى قال عنه تلميذه الزركلي:

"فقـيه أصولي حنبلي، عارف بالأدب والـتاريخ ... كـان سلفي العقيدة، فيه نزعة فلسـفية، حسـن المحاضرة، كارهاً للمظاهر، قانعاً بالكفاف"

مكائد خصومه

ابـتلى العلماء الكبار بكثرة خصومهم، وتهافـتهم القاسي في النقد والتجريح، وحيث أن العلامة بدران لم يكن يتهاون مع خصومه، فهـم يكيلون لـه الصاع صاعين وزيادة فوق ذلـك، عسى أن يتراجع أو يتهاون في تعريتهم أو فضـحهم، أو الكـف عن الأمر بالمعروف والنهـي عـن المـنكر، لكن شيئا من ذلك لم يحدث فقد استمر على نهجه فكانت الغلبة لهم، لأن طغـام العامة معهم، ولأن السلطان يريدهم دائمـاً لإسـكات كلمة الحق، وقد اشتدت هذه الخصـومة أكثر مما كانت عليه حين عاد من جولـته مـن أوروبا والمغرب، فهو لا يسكت علـى الخطـأ وهـم يسـتمرون في كسب ود السلطان.

من تلك الخصومات التي حدثت له أنه رحمـه الله كـان جارحـاً في نقده، قاسيا في لهجـته مع خصومه، مما جعلهم يتألبون عليه ويتوسـلون بسلطة الحاكم لإخراجه من بلدته دوما، فقد وصفه فخري البارودي في مذكراته بأنـه (أحـد علمـاء قصبة دوما... وهو من العلماء المجددين، وكان لسانه سليطا جريئا لا يهـاب أحداً...) وبسـبب ذلـك أخرجوه. ثم اطمأنوا بعد ذلك.

ويعلـق بـدران علـى عملية انتخاب المفتي الذي يرضي السلطان فيقول:

"وممـا ابتدع في زماننا أنهم يجمعون أهـل العمائم، فينتخبون مفتيا ويسمونه رئيس العلمـاء، ثم تقرره الحكومة مفتيا، ويحصرون الفتوى فيه"

ثم يصف أولئك بقوله:

"عمائم كالأبراج وأكمام كالأخراج"

لقـد كـان أولئك يشعرون أن بدران يشـكل عبئـاً علـيهم، ويضـعهم في مكانهم المناسب ويقطع أرزاقهم التي ينالونها باطلة. ودروس خاويـة، وهـرطقة جـاء الإسـلام لـيحاربها ويـزرع بـدل مـنها الفكر السليم المسـتنير، لكـنهم أبوا إلا مصلحتهم الخاصة، فشمروا عن سواعدهم لمنازلتهم وتألبوا عليه،

وحاصروه فضاقت عليه أنفاسه، ونفّروا الناس من مجالسته، حتى عاش حياته بعيداً عن مجالسهم وموائدهم، وأسباب موارد رزقهم غير المشروعة.

مؤلفاته

كتب العلامة عبد القادر بدران كثيراً من المؤلفات النافعة بعضها في كتيب صغير، وبعضها في مجلد، وبعضها في عدة مجلدات كبيرة، تبحث في النحو والفقه والفرائض والتاريخ والآثار والعقيدة والتفسير والفتاوى والأدب والخطب المنبرية والتراجم والحديث وشروحه والتهكم على خصومه الخاملين.

وفي الحقيقة أنه كان موسوعة علمية نادرة. ولذلك توجهت إليه سهام النقد والتجريح، وسعى المغرضون إلى نفيه من بلدته، وتسليط الألسنة عليه، وقذفه بالتهم، لإبعاد طلاب العلم عن حلقاته وعدم الاستفادة من معارفه وعلومه.

وقد قام الباحث الكويتي محمد بن ناصر العجمي بالبحث عن مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمذكورة في بطون كتبه أو كتب الذين كتبوا سيرة حياته ومؤلفاته فبلغت قرابة خمسين كتابا. وقد بوبها تبويبا معجميا فجاءت في غاية الكمال:

١- آداب المطالعة
٢- إيضاح المعالم في شروح العلامة ابن الناظم. (مخطوط).
٣- الأجوبة عن الأسئلة البيروتية. (مخطوط)
٤- البدرانية شرح المنظومة الفارضية (مطبوع)
٥- تاريخ دوما منذ فجر الدولة العباسية حتى القرن الرابع عشر الهجري.
٦- تشنيف الأسماع في بيان تحرير المد والصاع. (مخطوط)
٧- تعليق على مختصر الإفادات للبلباني.
٨- تعليق على لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة (مطبوع)
٩- تهذيب تاريخ الأمير عبد القادر الجزائري.
١٠- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر (طبع منه سبعة أجزاء وبقية خمسة أجزاء مخطوطة)
١١- جواهر الأفكار ومعادن الأسرار في تفسير كلام العزيز الجبار (لم يكمله)
١٢- حاشية على أخصر المختصرات للبلباني (مطبوع) بتحقيق العجمي الكويتي.
١٣- حاشية على رسالة ذم الموسوسين لابن قدامة.
١٤- حاشية على شرح منتهى الإرادات.
١٥- حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع. (مخطوط).
١٦- درة الغواص في حكم الذكاة بالرصاص. (مطبوع).
١٧- ديوان تسلية اللبيب عن ذكرى حبيب. (مخطوط).
١٨- ديوان الخطب المنبرية.
١٩- ذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي.
٢٠- الرحلة المغربية.
٢١- رسالة تهكمية على الصوفية. (مخطوط).
٢٢- رسالة في الربع المجيب.
٢٣- رسالة في الربع المقنطر.
٢٤- رسالة في علم البديع. (مخطوط).
٢٥- روضة الأرواح. (مخطوط).
٢٦- الروض البسام في تراجم المفتين بدمشق الشام.
٢٧- سبيل الرشاد إلى حقيقة الوعظ والإرشاد.
٢٨- شرح الأربعين حديثاً المنذرية.
٢٩- شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد. (مخطوط)
٣٠- شرح حديث أم هانئ في صلاة الضحى. (مخطوط)
٣١- شرح سنن النسائي.
٣٢- شرح شهاب الأخبار للقضاعي. (مخطوط)
٣٣- شرح نونية ابن القيم.

٣٤- الصحيح في حديث المعراج. (مخطوط).
٣٥- العقود الياقوتية في جيد الأسئلة الكويتية. (مطبوع)
٣٦- العقود العقود الدرية في الأجوبة القازانية (مخطوط)
٣٧- الفريدة اللؤلؤية في العقود الياقوتية (مطبوع)
٣٨- كفاية المرتقي إلى معرفة فرائض الخرقي (مطبوع)
٣٩- الكشف عن حال قصة هاروت وماروت (مخطوط).
٤٠- الكواكب الدرية في تاريخ عبد الرحمان اليوسف صدر سورية. (مطبوع)
٤١- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل. (مطبوع)
٤٢- منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . (مطبوع)
٤٣- منتخب النفائس في تهذيب المدارس.
٤٤- المنهل الصافي في شرح الكافي في العروض والقوافي.
٤٥- موارد الأفهام في سلسبيل عمدة الأحكام (مخطوط).
٤٦- نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة. (مطبوع).

إن هذا الكم من المؤلفات يعطينا صورة واضحة المعالم الذي ملأ الأرض علماً، وبلغت مؤلفاته الآفاق مطبوعة ومخطوطة، واشتهر بمواعظه وخطبه وشعره وتلاميذه، واستطاع أن يخلف لنا مدرسة فقهية وفكرية في آن واحد، كان يريدها أن تنتشر في سائر المدن السورية، وإلى العالم الإسلامي بأسره، لكن القدر عاجله فلم يجعله يحقق أمنيته.

تواضعه

كان رحمه الله متواضعاً في مأكله، وملبسه، ومجلسه، ومشيته، يكره التنطع بالكلام، والتشدق فيه كما كان يكره التعالي على الآخرين، وينزل الناس منازلهم، حتى إن الزركلي قال عنه: (كان لا يعني بملبس أو بمأكل...) بل نراه يحدثنا عن طريقته الخاصة في البحث عنها والوسيلة المتبعة لقراءتها ومعرفة غامضها فيقول:

"وانصرف مدة إلى البحث عما بقي من الآثار في مباني دمشق القديمة، فكان أحياناً يستعير سلماً خشبياً، وينقله بيديه ليقرأ كتابة على جدار أو اسما فوق باب".

وهذا ما جعله يترك لنا كتابا يعد أحد المراجع المهمة في المدارس العلمية التي كانت تزخر بها دمشق وهو تلخيصه لكتاب (الدارس في المدارس) للنعيمي، وكتابه الآخر (منادمة الأطلال) الذي يعتبر من المراجع الآثارية الهامة.

ثناء العلماء عليه

العلماء هم الذين يعرفون مكانة العلماء وأهل الفضل، وينزلونهم مكانتهم اللائقة بهم، ولذلك نجد أفذاذ رجال الأدب وسائر الفنون يثنون على العلامة عبد القادر بدران، ويطرونه أفضل إطراء وقد كان رحمه الله محترما بين أقرانه، مرموقا في كتابته، سديدا في آرائه.

قال عنه العلامة عبد الرزاق البيطار:
(الأديب الكامل، والأريب العالم العامل)

وقال العلامة خير الدين الزركلي:
(فقيه أصولي حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ، كان حسن المحاضرة كارها للمظاهر قانعا بالكفاف.. ضعف بصره قبل الكهولة، وفلج في أعوامه الأخيرة)

وقال أدهم الجندي:
(برع في سائر العلوم العقلية والأدبية والرياضية، وتبحّر في الفقه والنحو، فكان رحمه الله علماً من الأعلام).

وقال العلامة محمد بهجة البيطار في مقدمته لكتاب منادمة الأطلال:
(كان له ولشيخنا - جمال الدين القاسمي أثر كبير، وسعي عظيم في تجديد النهضة الدينية العلمية في هذه الديار، فقد أشبها رحمهما الله تعالى أئمة السلف تعليما

للخواص، وإرشاداً للعلوم، وتأليفاً للكتب النافعة، وزهداً في حطام الدنيا الزائلة).

وقال محب الدين الخطيب حين ذكر وفاته في مجلة الفتح:

(من أفاضل العلماء.... تلقى العلم عن المشايخ مدة خمس سنوات، ثم انصرف إلى تعليم نفسه بنفسه، فكان من أهل الصبر على التوسع في اكتساب المعارف من العلوم الشرعية والأدبية والعقلية والرياضية).

تلاميذه

كان رحمه الله يلقي دروسه على تلاميذه تحت قبة النسر في الجامع الأموي، كما كانت له دروس أخرى كثيرة في المدرسة السميساطية، ومدرسة عبد الله باشا العظم، عدا ما كان يقوم به من تدريس في مسقط رأسه دوما قبل أن يغضب عليه المسؤولون فيصادرون رأيه وينفونه من بلدته إلى دمشق، حيث الفضاء العلمي فيها أرحب، ومجال الاحتكار بالعلماء أوسع، ونستطيع الوصول إلى مكانة العلامة بدران من خلال معرفة مؤلفاته وتلاميذه الذين أخذوا عنه العلوم الكثيرة، والمعارف الواسعة، فهم أعلام في فنون الأدب والعلم والمعرفة، وأفذاذ في المؤلفات والتحقيقات، وعباقرة في السياسة والحكم وإدارة البلاد:

١- محمد سليم الجندي: كان عالماً بالعربية، وعضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.
٢- محمد البزم: كان شاعراً وأديبا أصله من العراق لكنه ولد بدمشق ومات فيها.
٣- خير الدين الزركلي: الشاعر والسياسي وصاحب كتاب الأعلام.

وهناك آخرون أخذوا عنه، وسمعوا دروسه، وحضروا مجالسه وأكثروا من التردد على غرفته المتواضعة منهم:

الأديب منيف بن راشد اليوسف ابن أخي عبد الرحمان باشا اليوسف، وكان محبا للعربية وعلومها، والشيخ محمد صالح العقاد الذي كان يسمى بدمشق (الشافعي الصغير)، والشيخ عبد الحكيم بن دامنلا القازاني الذي كان يسأل العلامة عبد القادر فيجيبه فجمعن أسئلته والأجوبة في كتاب سماه (الأجوبة القازانية) وغير هؤلاء كثير ممن انتفعوا بعلمه ونقلوا أماليه ودروسه.

وفاته

عاش حياته أعزباً فلا زوجة ولا ولد له، ولذلك كان متفرغا للعلم. وقراءة الكتب والتدريس في بيته والمساجد، وتأليف المؤلفات، لكنه في آخر حياته كان يعاني من وحشة الوحدة والعزلة، وخاصة بعدما أصيب بداء الفالج (الشلل) ورغم ذلك كان لا يتوانى عن المطالعة وقراءة الكتب، ثم أخذ يكتب بيده اليسرى، ويجيب على أسئلة الآخرين دون كسل أو ملل. ولما أقعده الشلل في نصفه الأيمن نقل إلى المشفى الوطني في البرامكة فعالجه الدكتور حسني سبح الذي كان رئيسا للجامعة السورية، ورئيسا للمجمع العلمي العربي، وكان من أكبر وأوثق أطباء دمشق، لكن المرض الذي استحكم منه جعل الشفاء مستحيلا. فمكث في المشفى ستة أشهر ثم خرج منها، وهو لا يزال يشكو تلك العلة التي آسته، إلى جانب ضعف بصره، وهزال صحته. حيث لفظ أنفاسه في غرفة متواضعة في إحدى مدارس الأوقاف، دون أن يكون بجانبه أحد من تلاميذه أو اقاربه أو ذويه، وذلك في ٢٥/٩/١٩٢٧م (١٣٤٦هـ).

دفن في مقبرة الباب الصغير، دون أن يشيع أو يسير خلف جنازته واحد من العلماء والأدباء الذين أخذوا عنه، ولم يكترث له مشايخ (عمائم الأبراج وأكمام الأخراج) كما وصفهم في حياته، بل عاش وحيدا ومات وحيدا، وهذه هي صفة العلماء العاملين في زمن الغربة.

رحمه الله رحمة واسعة وجعله في الفردوس الأعلى.

النقد التطبيقي للقصة القصيرة في سورية

للكاتب الدكتور عادل الفريجات

بقلم:
الياس قطريب

للنقد التطبيقي في الأدب جاذبيته ومتعته، ذلك أنه يسعى إلى فكّ مغاليق النص الأدبي، واستبطان ما ينطوي عليه من أفكار ورؤى ودلالات، إلى جانب الكشف عن قيمته الفنية وأسراره الجمالية. وهذا الأمر يتطلب ناقداً حصيفاً ذا عين بصيرة وخبيرة تستطيع النفاذ إلى عمق الأشياء، واكتناه الدلالات والمعاني المستترة، وسبر مواطن الإبداع وفق رؤية منهجية واضحة.

وفي زعمي، فإن الدكتور عادل الفريجات في كتابه (النقد التطبيقي للقصة القصيرة في سورية) حقق لنفسه صفة الناقد التطبيقي عن جدارة، وبرهن عن كفاءة وبراعة في مقاربة النصوص الأدبية نقدا وتحليلاً.

وهذا الكتاب مجموعة من الدراسات التطبيقية في نقد القصة القصيرة تحديداً، وكان الكاتب قد نشر معظمها، إن لم يكن جميعها، في مجلة الموقف الأدبي، ثم أعاد جمعها في هذا الكتاب الصادر عن اتحاد الكتاب العرب عام ٢٠٠٢.

بلغ عدد المجموعات القصصية التي درسها الكاتب ثلاث عشرة قصة، إضافة إلى دراسة جاءت في نهاية الكتاب تناول فيها سمات الإبداع القصصي عند القاص والروائي أديب نحوي.

وبالنظر إلى أصحاب هذه المجموعات نجد أنهم كتاب سوريون ينتمون إلى أجيال مختلفة، فمنهم كتاب معرفون، ولهم تجربة طويلة في كتابة القصة، أمثال:

زكريا تامر، ورياض نصور، ووليد إخلاصي وغيرهم...

ومنهم كتاب مازالت تجربتهم القصصية في طورها الأول أمثال: ابتسام شاكوش، ووفاء خرما، وأسامة حويج العمر وآخرين.

وهذه الإشارة إلى هؤلاء الكتاب لا تعني التقليل من شأن كتاباتهم، أو الحطّ من قيمة ما يبدعون.

وحسب ما أشار إليه الناقد فإن أقدم مجموعة قصصية تناولها بالدراسة يعود تاريخ صدورها إلى عام ١٩٨٩، وهي مجموعة (اللصوص وعروس البحر) للقاص رياض نصور، أما أحدثها فقد صدرت عام ٢٠٠٢، وهي مجموعة (العودة إلى البحر) للدكتور أحمد زياد محبك، ومجموعة (براق) التي شارك فيها عشرون قاصاً.

وكان الناقد قد مهّد لكتابه بدراسة نظرية تحت عنوان (القصة القصيرة: مفاهيم وعناصر) تحدّث فيها عن مفهوم القصة القصيرة، وميّز بينها وبين أشكال أخرى من السرد النثري كالخرافة، والأسطورة والطرفة، معتمدا في ذلك على كتاب (القصة القصيرة: النظرية والتقنية) لإمبرت، ثم تحدث عن عناصر القصة القصيرة مثل الزمان، والمكان، والشخصية القصصية، والبداية والنهاية، وختم دراسته بذكر شروط القصة الناجحة، والتي تتلخص في (حسن العرض إلى نمو الحدث إلى المشهدية المسرحية، كما يتوخّى من كاتبها أن يحكم بناءها، ويحذق حبكته، ويختار مفرداته دونما ترخص في الفصحى، ودونما إغراق في التعقر... ولابدّ أخيراً من التكثيف والتركيز اللذين يجعلان القصة القصيرة لقطة سينمائية. أو قطعة من نسيج، أو ومضة من ضوء تكتنز المعنى والمتعة معاً) ص١٤.

ولا شك أن هذه الشروط استخلصها الناقد من قراءته الواسعة والمتعمقة لما يصدر من مجموعات قصصية، ومن تسلّحه بوعي نقدي ومعرفي لفنّ القصة، ولهذا نراه يختار من المجموعات التي درسها قصصاً استوقفت - في رأيه - شروط القصة الناجحة، ويقوم بتحليلها ودراستها بشكل موسّع مثل قصة (العرفي) لوليد إخلاصي، وقصة بائع التوابيت) لرياض نصور، وقصة (بوح الزمان الأخير) لحنان درويش.

ولنا أن نتساءل هنا عن المنهج الذي اتبعه الناقد في دراسته. والحق أنه لم يلتزم بمنهج محدّد، وقد علّل ذلك بقوله:

"ولما كانت القصة القصيرة ذات طبيعة مرنة مطواعة تتخذ أكثر من شكل للبناء والصياغة، فقد نوّعت في طرقي للتأتي إليها وتحليلها، ورسم اتجاه البوصلة التي تخطه للإشارة إلى شمالها" ص٦.

ومع ذلك يمكننا بشكل عام، أن نتبيّن الخطوط العريضة للطريقة التي سلكها الناقد في دراسته، والتي تبدأ في التوصيف الشكلي للمجموعة، كالإشارة إلى جهة النشر، وتاريخ الإصدار، وعدد القصص والصفحات، مع الإشارة إلى ما أصدر القاص من مجموعات أخرى سابقة أو لاحقة لينتقل بعدها إلى

الحديث عن موضوعات القصص، وما تطرح من هموم وقضايا سياسية، واجتماعية، ووطنية، ونفسية. والتي تمثل هواجس القاص، وتعبرّ عن رؤاه الفكرية تجاه الحياة والمجتمع.

ولأن عنصري الشكل والمضمون متلازمان ومتضافران فقد قام الناقد بدراسة البنى الفنية للقصص، كالتقنيات القصصية والأسلوب، واللغة... مع الكشف عن مواطن الإجادة والإخفاق في هذه القصة أو تلك.

وقد عوّل الناقد في الدرجة الأولى على ذائقته الشخصية التي جمعت الوعي النقدي والإدراك المعرفي إلى جانب الحس الوجداني في تقدير الجمال بصفته بعداً أساسياً من أبعاد الإبداع.

ومما يلاحظ اهتمام الناقد بعناوين القصص، فالعنوان عنده يمثل (عنصراً هاماً من عناصر تشكيل الدلالة في القصة، وجزءاً من أجزاء استراتيجية أي نص أدبي) ص١٣.

ولا بأس من إيراد بعض الأمثلة التي توضح اهتمام الناقد بهذا الجانب. ففي دراسته لمجموعة (الحصرم) لزكريا تامر يقول:

"وقد اختار الكاتب عنوان قصته بحذق وبراعة، وهو الخبير باختيار العناوين، فجعله (الوطن المفدى) وذلك توجيها للقارئ ليرى البيت، وقد راح يكبر ويكبر، حتى يصبح بيوتاً وأحياء وقوى ومدناً" ص٢٠ - ٢١.

وقوله في دراسته لمجموعة (الحياة والغربة وما إليها) لوليد إخلاصي:

"إن العنوانات التي اختارها الكاتب لتصنيف قصصه إلى قصص للحياة. وأخرى للأصدقاء، وثالثة للغربة، ورابعة للتساؤل لم تحسم مسألة انتمائهما إلى هذه الأشياء أو الأفكار" ص٢٧.

وفي دراسته لمجموعة (جنوب القصة القصيرة) يقول:

"إن العنوان غير دقيق، وغير شاعري، وغير موفق. وكان بالإمكان اختيار ما هو أفضل منه" ص١١٨.

وفي نقده للغة القصصية، يشير الناقد إلى ضعف الصياغة اللغوية والأدبية عند بعض كتاب القصة، وإلى وقوع بعضهم الآخر في أخطاء نحوية ولغوية كقوله عن لغة إحدى المجموعات إنها:

"كانت بحاجة إلى صقل أكثر وتنقيح أوفر. ومن سوء الطالع أن يقع المرء على بعض الهنات النحوية فيها" ص١٠٥.

ومن جهة أخرى نراه يثني على لغة بعض القصاصين، ولا يخفي إعجابه وغبطته بروعتها وجمالها. كقوله عن اللغة القصصية عند رياض نصور:

"والحقيقة أن المفردات المختارة والعبارات المؤلفة نمّت على لغة سرد لا تعقّر فيها ولا ابتذال، ولا تعقيد ولا تسطّح. ففيها من البساطة قدر، ومن الشاعرية قدر آخر. وبين هذين الحدين تراوح لغة القص التي نروم أن نقرأها عند كتاب القصة في أيامنا هذه".

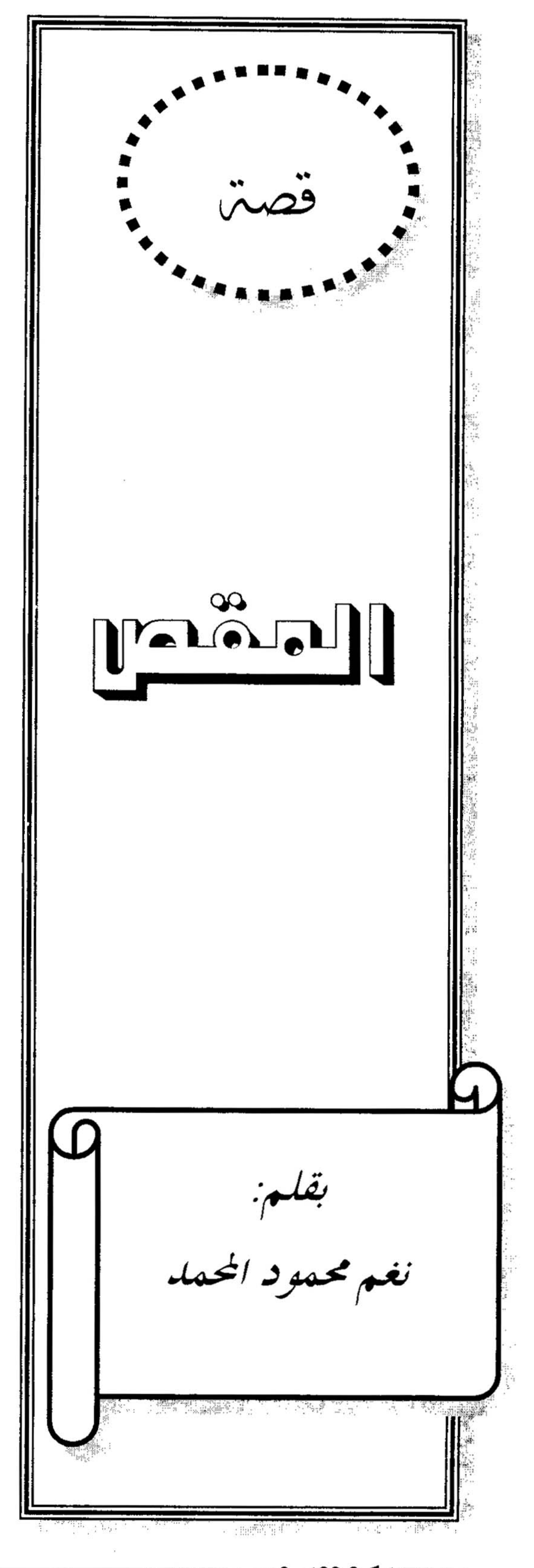



كـن لـي..

شعر: عدنان أبو عطا

مـا بـال طـيفك يحتمـي فـي مخدعـي
إذ حــطَّ فــي جفنــي ولاذ بأضــلعي
رحمــاكَ إن عصــف الهــيام صــبابة
قســراً إلــى تلــك الصــبابة مرجعــي
فأنــا عصــيرُ جــنونه.. وكــرومه
وأنــا المتــيّمُ فــي هــواه فــلا أعــي
فلقــد حضــنت لظــاه فــي حــرّ الجــوى
وفرشــتُ أشــواقي وجمــر المضــجع
وضــممته كــيلا يُصــابَ بغلّــةٍ
خوفــاً مــن الظمــأ الــذي فــي مربعــي
وجعلــت نبضــي جــدولاً فــي روضــه
وزهورهــا ظمــآى لمــا فــي أدمعــي
لا تبــتعد عنّــي فــإنّك خيمتــي
تحمــى ضــلوعي مــن ريــاحٍ أربــع
ظلّــي وحبّــي وارتــياح نواظــري
كــن لــي إذا مــا خــان حظــي مطمعــي



ها هي تتمدد في السرير، سمراء طويلة، يأخذ جسدها بالطول كامل مساحة السرير؛ أما عرضياً فلا يكاد يحتل ربعه. جلد وجهها ويديها المتهدل لا يوحي أبداً بما كانت عليه يوماً من جبروت وحيوية. أما شعرها فكان يبدو كجبل مكث الثلج في ذروته بينما ذاب عن أسفله، بعد أن هجرته الصبغة التي اعتادت عليها جدتي كل شهر. امتدت يدي إلى شعري الطويل وابتسمتُ رغماً عني وأنا أشعر بشيء من نشوة الانتصار. لا جدتي هذه المرة لن تفعلي ما اعتدت فعله عندما كنت صغيرة.

كان حلمي أن أقضي ولو مرة واحدة العيد بشعر أطول من طول رقبتي. لكن جدتي المتمددة أمامي الآن ،كانت مصرة أن تقص هذا الحلم من رأسي كلما زارتنا. حمداً لله أنها كانت تسكن في القرية والمواصلات غير متوفرة بكثافة كما هي الآن، وإلا فما كان شعري ليطول إلى ما تحت أذني. زياراتها الأطول تأتي في مواسم الأعياد. كان للعيد في بيتنا طقوس لا تتغير. يتغير ديكور المنزل الصغير رأساً على عقب وتغير كل غرفة في البيت صفتها حتى تكاد جميعها تلبس هوية غرفة النوم والجلوس. أكثر ما كان يسعدني هو أنني أعرف أن مكان نومي مدة أيام العيد سيكون فراشاً على الأرض مع أخوتي وأبناء عمي الذين يأتون من العاصمة. سنشبع إذاً من اللعب والتدحرج والقفز على الفرش. وحين نتعب من اللعب، نجلس بهدوء لكن ألسنتنا لا تهدأ. ونادراً ما ننام قبل أن تنشب نقاشات حادة بيننا. المشكلة أن إبن عمي مثلاً يصر دائماً أن أباه، الذي يعمل في الجيش، أعلى

رتبة من والدي. أما أنا، ورغم أني لم أكن أفقه شيئاً في موضوع الجيش وتدرجات الرتب، فأصر أن والدي برتبة عميد بعد أن فهمت منهم أن العميد أعلى رتبة من العقيد، وتلك رتبة والده هو. بالمناسبة أبي لم يكن يمت بأية صلة للجيش فهو يعمل موظفاً حكومياً. لا يعني هذا أنني كنت أكذب ففي الحقيقة كنت مقتنعة بما أقول، إذ كان اعتقادي أن أبي يعمل موظفاً حكومياً وعميداً في نفس الوقت، فجميع الرجال يعملون في الجيش بطريقة أو بأخرى، ومشاركته في حرب تشرين أكبر دليل على ذلك.

لم يعبأ أحد من الكبار لهذه النقاشات الحادة سوى جدتي التي كانت تنام معنا في نفس الغرفة ولكن في سريري الذي أتقاسمه في الأيام العادية مع أختي الكبرى. وغالباً ما كانت تنهي أي نقاش بإسكاتي أنا وتقريعي وإن كنت محقة في الأمور الأخرى. لا أنكر بأنني كنت حينها أكرهها. لكن سرعان ما أنسى كرهي ومشاعري الحانقة حين تبدأ جدتي بعد طلب من أخي، الذي لا ترفض له طلباً، برواية الحكايات لنا عن "سي علاي الدين" و "الست بدور"، التي ما فهمت يوماً ما كانت تفعله تماماً داخل السبع بحور. أعترف أنني شخصياً ما عرفت مرةً نهاية أي من حكاياتها، حيث كنت أنام على رنة صوتها الذي كان يسحرني ويغمرني بطمأنينة وحنان غريبين.

ومن أهم طقوس العيد لدينا أيضاً شراء أمي للأقمشة الكتانية وخروج آلة الحياكة من مخبئها إيذاناً بقرب وصول جدتي قبل أيام من العيد. جدتي لم تكن خيّاطة بارعة ولكنها كانت تجيد حياكة (البيجامات)، ودائماً نفس التفصيلة للذكور والإناث. لا أذكر أن أمي اشترت لنا في طفولتنا بيجاما من السوق. ولم أفكر أنا أو أخوتي يوماً بشراء البيجامات الجاهزة. فقد كنا نعجب جداً ببيجامات جدتي. فرحتنا بارتدائها ليلاً لم تكن أقل منها بارتدائنا ملابس العيد الجديدة نهاراً.

أما قبل حياكة البيجاما ،كان لنفس المقص الذي تفصل به البيجاما طقس يخصني وحدي مع جدتي وينغـّص علي دائماً فرحتي بقدومها. لا يمكن أن يمضي اليوم الأول لزيارتها دون أن يكون شعري قد اجتز حتى أسفل أذني، وغرّتي قاربت منبت الشعر. وحين عاتبتها أمي مرة لأنه قصير جداً قالت بلهجة الحكيم الذي لا يعرف أحد ما يعرفه هو:

- "ألا ترين يا امرأة كيف يكاد شعرها الطويل يفقأ عينيها؟ و كيف تنفخ غرتها عشرين مرة في الدقيقة كي تبعده عنهما؟ هكذا أفضل، فترتاح هي ويظهر جمال عينيها، حتى موعد قدومي إليكم مجدداً."

لا أدري لماذا كنت رغم كل هذا أفرح لقدوم جدتي ومع أن وجودها في المنزل لم يكن يوماً مصدر راحة بالنسبة لي. ففي موعد وصولها كنا نقف أنا وإخوتي في الخارج مهللين فرحين لذلك، ولا تختفي فرحة أحد سواي إذ لا نكاد ندخل البيت وترتاح قليلاً من عناء السفر، حتى تبحث عن المقص وتجلس. تقبض عليّ، وتضعني بين فخذيها وتشد على جسدي وكأنني خروف العيد الذي سيضحون به وتجز شعري إلى ما تحت أذني بقليل

باستقامة واحدة يدعونها "كاريه". تتنفس بعدها بارتياح وكأن الشعر قد أزيل عن عينيها هي، لا عن عيني أنا. بينما أنا بين فخذيها أتخيل نفسي أقص يديها بنفس المقص.

ولم يكن هذا الأمر يطبّق على أختيّ الإثنتين وكلتاهما أكبر مني. أنا فقط كنت العائق الأكبر أمام راحتها وتنفسها.لم تفتني هذه الملاحظة طفلةً. فسألت أمي - إذ لم أكن أجرؤ بالطبع على سؤال جدتي-لم لا تفعل جدتي الشيء نفسه مع أختيّ.؟ بعد ارتباك أجابتني بشيء من المديح، أن شعري ناعم جداً ويستعصي على الحبك فينزل على جبيني وعيني. بينما شعر أختي أكثر خشونة. فكرت في إجابتها ملياً،فلم أقتنع، ولم تحر أمي جواباً حين لفتّ نظرها إلى أن الجدة لم تكن تفعل شيئاً لشعر أخي الذي أكبره بثلاثة أعوام مهما طال شعره ودخل في عينيه أو أذنيه. بل سمعتها مرة تشجع أمي على تركه يطول خوفاً من الحسد.

تقضي جدتي معظم وقتها في منزلنا وهي تضعه فوق فخذيها أي في حضنها وتداعب شعره بنعومة غريبة. نظرت أمي إليّ يومها وأخذت تمسد شعري طالبة مني ألا أهتم لهذا كثيراً، إذ هذا هو شأن العجائز، ولا أحد يفهم تصرفاتهم الغريبة. ولكن ألم ألحظ يومها نظرة كسيرة في عيني أمي؟.

يوماً أعلن عن قدوم جدتي في المنزل. شعرت فوراً بانقباض، فقررت أمراً. وقبيل وصولها بقليل قمت بإخفاء المقص، وهكذا أمضوا وقتاً طويلاً يبحثون عنه. اغتنمت الفرصة لألعب قدر الإمكان خارج البيت قبل أن يسألني أحد عنه. ولكن عند دخولي المنزل فوجئت بالمقص في يدها والعرق يتصبب من وجهها وقد انتفخت عروقها ووجناتها من الغضب لاكتشافها خطتي. وهكذا كانت القَصّة في ذلك اليوم "ايلي غارسون" وليست "كاريه".

بعد مرور سنوات وبعد أن بدأت الأنوثة تنضج في ملامحي لم تعتقني جدتي من تعليقاتها ومعاملتها المميزة لي. فكنت أراها تختلس النظر إلي بنظرات اختلطت فيها معان ما استطعت يومها فهمها. وتكرر دعاء على مسمعي فتفتح يدها إلى السماء قائلة:

"الله يبعت لك عريس مستعجل، مستعجل (تعيدها للتأكيد على المعنى) وياخدك على فرنسا ولا يعيدك إلى هذه البلاد"

ويغوص قلبي في صدري وأكره كوني أنثى وأكره العريس الذي لم يأتِ بعد؛خاصة أن هذا الدعاء كان يأتيني حين تكون منزعجة مني وتحديداً إثر شكوى من أخي الذي كان يتقصد أمامها أن يغضب مني لأتفه الأسباب.

أنظر إليها وهي الآن متمددة أمامي ولا حول لها ولا قوة. تتملكني الشفقة. أيعقل أن هذه هي نفس المرأة التي ما كان أحد يجرؤ على كسر كلمتها،حتى أبي؟ يا إلهي كيف تحولت إلى كومة من الحطام!كانت نائمة فلم أشأ إيقاظها. اكتفيت بالنظر إليها، وكان أمامي الوقت الكافي لأعود بذاكرتي إلى ما فعلته في السنوات الماضية ومحاولة فهمها. الغريب أنني لا أشعر تجاهها إلا بالمحبة. وخاصة أن بعض تصرفاتها المناقضة لكل ما كانت تفعله ويحزنني، وردت بخاطري. فأنا لا أنسى كيف

كانت تخصني أنا بنظراتها حين تتحدث عن (الست بدور) ورقتها وجمالها وقد تمتد يدها إلى رأسي أنا دون الجميع مما كان يبث في قلب ابنة عمي الغيرة، فتأخذ يدها وتضعها على رأسها هي. وكم مرة استيقظتُ جافلة حين تغطيني في الليل، فتبدأ بتمتمة حنونة تدعوني فيها للسكينة والنوم. أنا؟ أتراها أخطأت الشخص المطلوب لكثرة الأطفال حولها؟ لكنها لفظت اسمي أنا. فأحس بالإطراء والسعادة.

مرة كنت في الخامسة عشرَ من عمري حين سمعت مصادفة أمي تحدث أبي عن جدتي وما فعلته يوم ولادتي. ذكرت أمي أنها لم تسامحها إلا منذ مدة بسيطة. لكن أبي أنهى الحديث قائلاً أن أمه من أطيب النساء ولا يحق لأحد أن يحاسبها على شيء هي نفسها لا تعرف سببه فوافقته أمي. لم يكن ممكناً أن أترك أمي بعد خروج أبي دون أن تخبرني بما حصل حاولتْ في البداية التملص، لكنني أصريت فخضعت.

كانت جدتي قد اقتنعت أن حصة ابنها من البنات قد انتهت بعد بنتين، وآن لبستانه أن يزهر بالورود أي بالصبي. وقامت بالنذور اللازمة ليأتي المولود القادم ذكراً. أخذت تتصرف بثقة كاملة حتى أنها رمت كل ما لدى أمي من ملابس للبنات وقامت بحياكة ما يحتاجه الذكر وأصرت أن يكون كل شيء باللون الأزرق أو الأبيض المطرز بالأزرق، على عادة الناس في بلدنا. فهذا اللون هوَ المتعارف عليه للذكور، ورفضت رفضاً قاطعاً أن تحيك شيئاً باللون الزهري، لون البنات.

يوم ولادتي انتظرت خروج القابلة عند باب الغرفة. فبلغت صدمتها حداً كبيراً عندما أبلغتها القابلة عن قدوم الوحش الذي هدم أمانيها وكان "أنا". لم تدخل إلى أمي لتهنئها بالسلامة ولم تنتظر قدوم أبي. بل جمعت حوائجها وخرجت من البيت مسرعة إلى القرية.

لم ترني إلاّ بعد مرور شهرين على ولادتي حين زارها أهلي بأنفسهم في القرية، وكانت أمي بالطبع تلبسني ما حاكته جدتي للصبي. يا إلهي !كيف بدوت يومها؟ لا بد أنني ظهرت كذاهب إلى حفلة تنكرية.

أما يوم ولادة أخي،فلم تحضر نهائياً. بل بقيت في القرية وكان موسم قطاف الزيتون قد بدأ. تعسرت ولادة أمي،فنقلوها إلى المشفى، ومع ذلك لم تأتِ جدتي. ولد أخي أخيراً فترك أبي أمي بعهدة أختها وذهب إلى القرية ليزف الخبر السعيد لوالدته، إذ لم تكن خطوط الهواتف قد وصلت إلى قرانا في ذلك الوقت. وجدها في الحقل فوق شجرة تقطف الزيتون. لم ينتظر حتى يصل إليها، فبدأ بالصياح من بعيد:

-"أمي !جاءنا الصبي، جاءنا الصبي. أبشري، هللي."

هنا لم تتمكن جدتي من ضبط فرحتها، وأرادت النزول وهي تزغرد، فلم تنتبه لموطئ قدمها، فأخطأت الغصن وسقطت على الأرض. كسرت ساقها ويدها، فنقلها أبي إلى المشفى نفسه الذي كانت أمي فيه. رغم يدها المكسورة أصرت على حضن أخي بيدها السليمة فترة طويلة.

لا أدري لماذا أسامحها، ربما لأن أمي كانت تخفف عني دائماً وتبرر لها أمامي فما استطعت يوماً أن أكرهها. ولكن والحق يقال، رغم قساوتها وغلاظة طبعها معي كنت أحياناً أستشعر بعض الحب والحنان منها تجاهي، مما قد يضعني في مصاف الآخرين.

حين اتصلت بي أمي إلى فرنسا حيث أدرس، وأخبرتني أن جدتي تعاني سكرات الموت، لم أستطع البقاء لحظة واحدة. ولكن لم أستفد من عودتي السريعة، فها هي نائمة، بل شبه غائبة عن الوعي. أشعر برغبة عظيمة أن تستيقظ لأشكرها على ما فعلته لأجلي. لولاها لما سمح لي والدي بالسفر إلى الخارج رغم تفوقي في دراستي الجامعية. وكانت حجته أنني فتاة ومن الخطر أن أسافر وحدي إلى بلد غريب. أجابته جدتي بحزم:

- "بل لأنها فتاة، عليك أن تسلحها بالعلم، فهو الورقة الوحيدة الرابحة في يدها إن جار عليها الزمن".

- "لكنها تعلمت ما فيه الكفاية لتؤمن وظيفة تعيش منها".

- "غريب أمرك. ألا تحب أن تفخر بابنتك؟"

وامتد النقاش بينهما. تركتهما ودخلت غرفتي وقد تملكتني الدهشة من موقف جدتي ثم بدأت تساورني الشكوك بنواياها إذ عاد إلى ذاكرتي دعاءها علي بعريس مستعجل للسفر إلى فرنسا. أتراها تفعل ما تفعل الآن بسبب كرهها لي؟ لكنها بدت صادقة. على كل حال ما همي أنا من هذا ؟ كل ما يهمني هو أن أسافر وأحقق حلمي. وهذا ما حصل بفضل جدتي.

وبقي السؤال حتى الآن يلح في رأسي: لماذا تدعو عليّ أنا بالذات هذا الدعاء؟

شعور عظيم بالفرح مسَّ قلبي حين فتحت جدتي عينيها. أمسكتُ يدها وقلت:

"جدتي !هذه أنا. هل عرفتني؟ لقد أتيت من فرنسا لأراك وأطمئن عليك"

لا يخدعني نظري. ما أراه هو فعلاً دموع تنهمر من عينيها. ضغطتْ على يدي وزمّت شفتيها طالبة مني قبلة. يا إلهي أأنا في حلم أم في حقيقة؟ انحنيت وتبادلنا القبلات.

إنه الوقت المناسب، يجب أن أجد تفسيراً لأشياء كثيرة. انتظرتُ قليلاً حتى تهدأ ثم سألتها بحذر:

- "جدتي، لماذا كنتِ تكرهينني عندما كنت صغيرة؟"

بدا الارتباك واضحاً على وجهها وقالت:

-"أنا؟ أنا أكرهك؟"

ثم سكتت و بدت حائرة لا تعرف ماذا تقول. أردت أن أحدد أكثر، فسألتها مبتسمة:

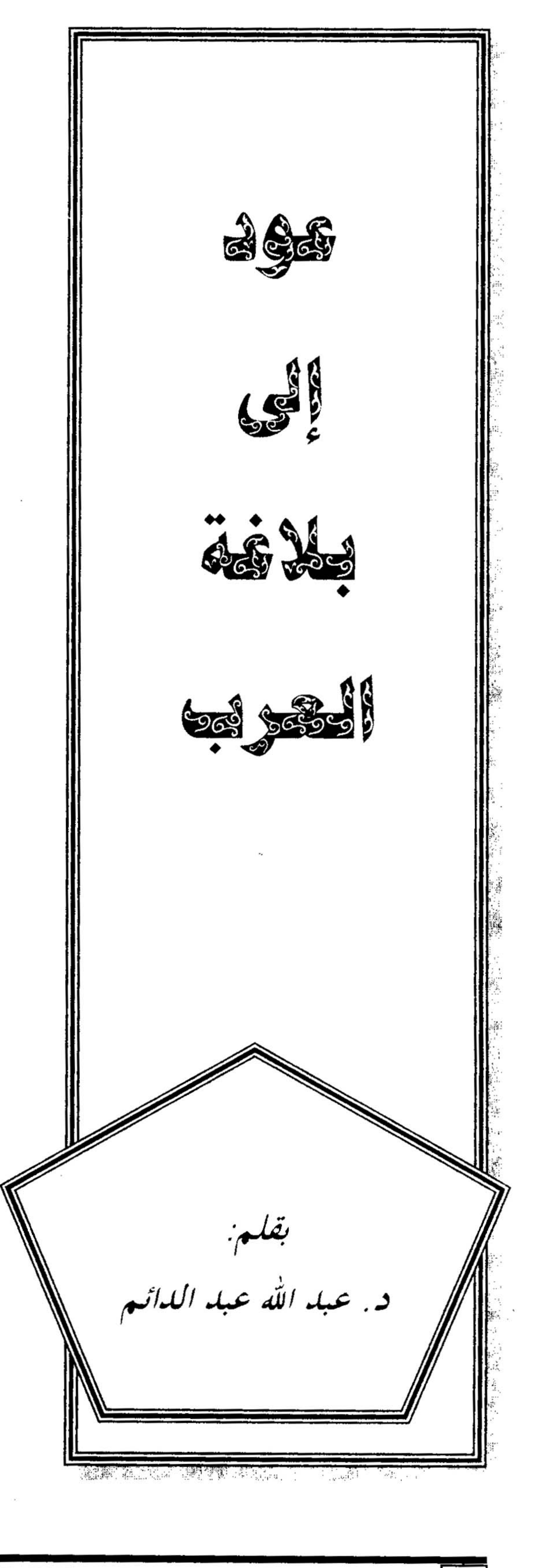
- "لماذا إذن كنت تدعين عليّ بعريس مستعجل يريد السفر بسرعة إلى فرنسا؟"

أشاحت بنظرها سريعاً عني ولم تجب في البداية ثم بتلعثم واضح قالت:

"وهل هذه دعوة سيئة؟ لقد كنت أدعو لك، لا عليك."

رأيت فمها يتحرك متمتماً بكلمات أخرى، لكن صوتها ضعيف بالكاد يخرج من كهفه المتشقق. على كل حال إجابة موفقة يا جدتي،حتى وإن كانت مجرد إجابة دبلوماسية لتخرج نفسها من مأزق لم تكن تتوقعه.

لقد اكتفيت بما سمعت الآن.



ليس بالجديد أن نقول أن ما يسر للعرب القدامى من العناية بالبلاغة ومقاييسها لم ييسر لكثير غيرهم، وما نغلو إن زعمنا أن نظرة العرب في شتى عصورهم إلى اللفظ الشريف والمعنى الكريم، لم تكن تقل في حال من الأحوال عن نظرتهم إلى الخلق الرفيع والعقل السديد وما كانوا ليفصلوا في الواقع بين ما أوتيه المرء من براعة المقال وما أوتيه من رجاحة العقل وحميد الخصال. وكان بيان الرجل عندهم هو المرآة التي ينعكس عليها طبعه وترتسم فيها سجيته.

ومن العسير ن نحيط بالجوانب الواسعة العريضة لنظرة العرب هذه إلى البلاغة والمنطق. وحسبنا أن نقول أن العرب، ومن قبلهم اليونان وعلى رأسهم أرسطو كانوا يدركون عمق الصلة بين التعبير والتفكير، بين اللغة والفكر كما يقول علماء النفس اليوم. حتى أن كلمة (منطق) عندهم تدل في آن واحد على الكلام وعلى الفكر، كما تدل كلمة (لوغوس) اليونانية على المعنيين سواء بسواء. والهوة التي نلفيها عندنا اليوم واسعة بين الفكر واللغة، بين الإشارة والعبارة، كانت لدى العرب في تلك العصور من تاريخهم، ضيقة لا تكاد تستبين.

ولما كانت نظرتهم إلى الفكر نظرة توحد بينهم وبين السلوك والخلق إلى حد كبير، ولما كانوا يرون في عقل المرء حماية لخلقه ودرعا لتصرفه، رأينا المنطق في نهاية الأمر هو المفصح عندهم عن جماع الشخصية، ما دام أداة الكشف عن الفكر وما دام الفكر هو الخلق.

ومن هنا كانت عناية العرب بالبلاغة عناية تتجاوز في الواقع مجرد الاهتمام بالشكل والمبنى، كما يظن غالباً. وما انحدرت إليه البلاغة في عصور التأخر العربي، يوم أصبحت صناعة تجتني بالشكل دون الجوهر، ظاهرة دخيلة على اللسان العربي، تنبئ عن مرض خطير أصاب الإنسان العربي، يوم انفصل لديه المعنى عن اللفظ، ويوم اتسعت الهوة بينهما، بحيث مضى كل منهما في طريقه.

والحق أن هذه الهوة التي أخذت تقوم في تاريخ العرب المتأخر بين اللفظ والمعنى، بل بين الكلام والشخصية جملة، أمارة كبرى من أمائر التأخر الحضاري الذي أصابهم. ففي عصور الإبداع والخلق الحضاري لا يقصر الفكر عن أداته كما لا تتجاوز الأداة محركها.

أما في عصور التأخر فنجد الفكر أجدب من أن يولد عبارة ونجد العبارة تلهث دون الإفصاح عن فكرة. ومن الصحيح أن نعيد دوما في هذا المجال قولة (بوالو) الشهيرة: ((إن ما نجيد التفكير فيه نجيد التعبير عنه، وتأتينا الألفاظ المفصحة عنه طائعة مختارة))

وما نود ههنا أن نخوض في هذا البحث الذي يقوى على أن يملأ الصفحات الطوال. وهو بحق قمين بألا يجتزأ ويبتر في مثل هذه العجالة.

وكل ما قصدنا إليه مقدمة صغيرة نضعها بين يدي طائفة من التعريفات التي قدمها العرب للبلاغة، والتي تقع عليها دوما في كتب الأدب دون أن نقف عندها طويلا. وهي في الواقع تمتاح قوتها واتجاهها كله من نظرة واحدة توحد بين اللفظ والمعنى توحيدا عميقا، وتأبى كل بون بينهما، وهي التي جرى عليها العرب أيام كانت حضارتهم الزاهرة تقيهم عي المقال كما تقيهم عي الفعال، وأيام كانت وثبتهم الروحية قادرة على صهر الكلم والفكر والعمل في بوتقة واحدة وفي كيان متآخذ متعانق.

إن الكثير من العبارات المبعثرة التي نقع عليها في كتب الأدب ونمر بها مرور الكرام، يربط بينها في الواقع هذا الخيط الرائد الذي يوكد على الصلة بين حركة الفكر وأداة التعبير عنها، تلك الصلة التي كانت عفوية طبيعية أيام ازدهار الحضارة العربية، ثم أخذت بالانفصام شيئا فشيئا مع انفصام الحضارة نفسها وانطفائها.

ومن هنا وجدنا الإلحاف في أهمية البلاغة يراود الكتاب العرب في العصور التي بدأ الضعف ينتاب فيها الحضارة العربية، وفي الفترات التي غدت فيها تلك الحضارة مهددة بهجمات أعدائها. هكذا نرى البيان والتبيين مثلاً من أوائل طلقات الإنذار التي أطلقها الأدباء العرب، ردا على بداية الوهن. نعني بداية الانهيار في الصلة بين الفكر واللغة. وكلنا يعلم كيف كان هذا الكتاب ردا مباشرا على هجمات الشعوبية ومطاعنها. مثله يقال في (عيون الأخبار) وفي (المعارف) وفي جميع تلك المؤلفات التي أخذت تعنى بجمع تراث العرب البلاغي، مذكرة به منذرة بأخطار الابتعاد عنه، معيدة الحضارة العربية إلى سابق عهدها.

ومن خلال هذا الإطار ينبغي أن نفهم تلك الوقفات الطوال التي نجدها في مثل هذه المؤلفات عند البلاغة وتعريفها ومعناها، وعند أقوال الأعراب فيها، وعندما أثر عن النبي والصحابة وغيرهم من آراء حولها. أفلا نجد مثلاً في البيان والتبين للجاحظ إشارة إلى حديث (لم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك..؟)، أفلا نلقي قولا كقول عبد الله بن وهب الراسبي: (إن الرأي ليس بنهبى. وخمير الرأي خير من فطيره، ورب شيء غابه خير من طريه، وتأخيره خير من تقدمه). وفي العمدة لابن رشيق، أفلا تطالعنا مثل هذه الأقوال، ويطالعنا وراءها هذا الحرص عينه على الزواج بين المعنى واللفظ..؟ أفلا نتبين ذلك خاصة في ذلك الحرص على الإيجاز مقصرا..؟

(البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى). (إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيرا وإذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا). (البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره وآخره يرتبط بأوله). (لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه). (البلاغة أصابت المعنى والقصد إلى الحجة). (البلاغة بلوغ المعنى ولما يطل سفر الكلام). البلاغة إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ). (قيم الكلام العقل وزينته الصواب وحيلته الإعراب ورائضه اللسان وجسمه القريحة وروحه المعاني).

ذلك طرف من أقوال لا حصر لها، يحسبها القارئ للوهلة الأولى آراء متناثرة لا يجمع بينها جامع، قيلت بدافع من تشدق، وهي

في واقع الأمر توكيد لنظرة طالما حرص عليها العرب، وأرادوا هؤلاء الكتاب أن يقفوا عندها عندما غدت عرضة للتصدع، وقد يبدو من بدهي الأمر أن تذكر هذه الصلة بين اللفظ والمعنى، وقد يظن أن هذا القول قول مكرور ليس فيه جديد.

والواقع أن وقفة المتقدمين من الكتاب العرب عنده وقفة ذات معنى ودلالة، فهي تومئ إلى روح الفكر العربي، وإلى ضرورة الحفاظ على ذلك الجوهر المقوم لطبع العربي، نعني ذلك الجمع المتين بين قيمة الفكر وقيمة الأداء، ثم بين الإعراب في القول والإعراب في العمل. فقد امتاز العرب أيام أصالتهم بهذه الوحدة العضوية العميقة التي أقاموها بين حدود اللفظ وحدود المعنى، ثم بين حدود المعنى وحدود العمل والسلوك. وكان مثال البلاغة الحقة عندهم الكلام المسؤول، المسؤول عن مطابقته لمعناه في دقة ورشاقة، والمسؤول عن مطابقته لما ينجم عنه من سلوك. وما كان شيء أبغض إليهم من البيان البهلواني، البيان الذي ينم عن نفاق، إذ يجعل الباطل حقاً والحق باطلاً. ووكد الإسلام هذا المنزع لديهم، فرأينا الرسول ﷺ ينهى عن التشدق والتفيهق والبيان الكاذب.

فكم يمدنا لسان العرب بأمثلة بينات على روحهم التي تأبى الفراق بين القول والفكر والعمل. وكم يجدر بنا أن نجد هذا الجانب من روحهم بعد أن نالته يد الإفساد والتشويه، وبعد أن راود بعض الباحثين أن يتهموا الفكر العربي بما أصابه في عصوره المتأخرة من انفصام بين التعبير والتفكير، وبين التفكير والسلوك.

إن فهمنا لطبيعة اللسان العربي دب إليه التشويه والإفساد الذي دب إلى نظرتنا لسائر مظاهر حياتنا العربية، وكم حسبنا الدخيل في هذا المجال أصيلا، والمتأخر متقدما، والانحطاط عترة. وعلى هذه الشاكلة سرى إلينا ما شاع في عصور الانحطاط من عناية بلاغية يربو فيها الشكل على المعنى، وما ساد بعد ذلك من تمزق اللغة الفصحى إلى لغات عامية، فحسبنا هذا الفراق الطارئ بين التفكير والتعبير فرقاً أصيلاً بل علة مقيمة في الطبع العربي، وحسبنا غلبة اللفظ على الفكر، وغلبة القول على العمل من السمات الأصلية التي ابتليت بها الروح العربية.

ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى وضع الأمور في نصابها، لندرك حقيقة عبقرية اللسان العربي، وليستبين لنا من خلال ذلك كله أن البيان العربي كان دوما بياناً امتزج فيه القول بالفكر وبالعمل، وكان لا يفصل بين وعي المقال ووعي الفعال، ولا يفرق بين شرف اللفظ وشرف الفكر المسؤول الثاوي وراءه. إن اللفظة التي لا يعرف رصيدها الفكري، شنشنة دخيلة على العرب والكيان العربي، وهي في واقعهم رمز للابتعاد عن روح الحضارة يجعلنا نعود إلى تلك البلاغة العميقة التي جمع فيها العرب بين جمال المعنى وجمال اللفظ وجمال قائله. إن مثل هذا الاقتراب يجعلنا ندرك إن اللفظ مسؤول معناها. إنه يذكرنا بمثل قول الشاعر:

إذا أنا بالمعروف لم اثن صادقا
ولم اشتم الجبس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه
وشق لي الله المسامع والفما

إن محاولات الكتاب العرب الذين أشرنا إلى بعضهم، من مثل الجاحظ وابن رشيق وابن قتيبة والثعالبي وغيرهم كانت تهدف في أعماقها إلى العود إلى الطبيعة الحقة للبلاغة العربية وإلى التوكيد على مقوماتها الصحيحة والتعريفات التي كانوا يطيلون الحديث عنها كانت تعني في أعماقها رد الأشياء إلى الأصول والرجوع إلى الجادة.

ومثل هذه المحاولات ينبغي أن تمدنا اليوم، لنعود أيضاً إلى جادة البلاغة العربية، فنربط بأصولها، وتنعقد الصلة بيننا وبين روحها. وعند ذلك تصبح الكلمة قوة ويصبح الفكر سلوكاً، ونعاود ذلك الجانب الإنساني الهام من تراثنا، جانب الارتباط بين حياة الألفاظ وحياة المعاني والأفعال.




وتسألني..!

شعر : محمد الزينو السلوم

إذا شمس الضحى غابت وغابا
ولاذ القلب للظل اكتئابا
فلا كانت شموس في حياتي
إذا عانيت في النجوى غلابا
وتلمحني، فترميني بسهم
أيدمى القلب من سهم أصابا..؟
وتسألني على عجل سؤالاً
وألمح في مآقيها اغترابا
وكيف أردّ والأيام تترى
وقد جفّ الهوى مني وذابا
لأنت بخيلة في كل شيء
فلا رملاً حصدت ولا هبابا
وما أنا دمية تلهين حتى
بظلك أرتجي دوماً جوابا
أنا الغزلان تمرح في حقولي
وقلبي ما اكتوى يوماً وذابا
أغازلهنّ في شعري إذا ما
سكن القلب، غنّيت العتابا
إذا ما أقبلت فالصدر رحبٌ
وإمّا أدبرت غنّى وطابا







أنـــا بالطهـــر أســـمو غـــير أنـــي
إذا مـــا الوجـــد هـــلّ فتحـــت بابـــا
وقلـــبك يغلـــق الأبـــواب حـــتى
يجـــيء اللـــيل، ينســـاب انســـيابا
لتحنـــي الـــرأس للعشـــق اعـــترافاً
وتطـــوي اللـــيل حـــزناً واغـــترابا
فهـــلاّ كـــان للقلـــب انذيـــاحٌ
إلـــى الذكـــرى إذا مـــا الصـــبح آبـــا
يفـــتّق صـــمتها جرحـــي وحزنـــي
تعاتبنـــي ولا أهـــوى العـــتابا
إذا فـــاض الحنيـــن فـــلا عـــتاب
لعـــلّ الوصـــل ينســـينا الغـــيابا
فهـــيّا لا تقولـــي غـــاب عنّـــي
فكـــأس العمـــر ينســـكب انســـكابا
تعالـــي نرتجـــي وصـــلاً وإلاّ
غـــزاك اللـــيل ينتصـــب انتصـــابا
تـــردّى حبـــنا، مـــا عـــاد يـــزهو
كـــأن المـــوت يقـــترب اقـــترابا
فـــيا شـــمس الضـــحى يكفـــي غـــيابا
وإلاَّ القلـــب ينتحـــب انـــتحابا
فـــلا يلقـــى ســـوى صـــد وهجـــر
تعالـــي واملئـــي كأســـي شـــرابا
لأشـــرب نخـــب ذكـــرى أرّقتنـــي
وأُغلـــق عـــندها بابـــاً وبابـــا




الكاريكاتير فن المأساة الضاحكة

بقلم:
أنس تركي أبو جدعان

رسم تخطيطي بسيط وتعليق ساخر قصير أسفرا عن ابتسامة واسعة وأطلقا معاني بارعة؛ لتسكن ذهن الانسان وتجبره على التفكير فيما داخل دائرة الواقع وتدعوه إلى تشكيل الدائرة من جديد بفكر وعقل جديدين من أجل واقع أفضل. هذا هو هدف فن الكاريكاتير.

جذور فن الكاريكاتير في العالم

يعتبر القدماء المصريين هم أول من تنبه إلى هذا الفن الذي يحقق مآربهم في السخرية والتعريض بالحاكم وكل ذي سلطة مستبدة، فكان الفرعون يستخدم الحيوانات والرموز البسيطة للتعبير عن رأيه الحقيقي في أصحاب العروش، ففي إحدى الأوستراكا (الشقفات) القديمة نرى تصويرا كروكيًا لصراع بين القطط والفئران. ويدور ملك الفئران على عجلة حربية تقودها كلبتان ويهجم على حصن تحرسه القطط. ولم يكن هذا بالطبع من فراغ، فلا بد لمواقف هام أو أحداث جمّة وقعت رأى فيها الفنان أن الأعداء أو غيرهم من الصغار الشأن قد تجرءوا وحاربوا من هم أقوى منهم. بل من هم أكثر منهم منعة وحجم.

وكان الرسام المصري القديم يُظهر عيوب مجتمعة أملاً في إصلاحها. فعلى إحدى هذه الشقفات نرى رسماً لفرس النهر وقد جلس فوق شجرة عالية بينما يحاول النسر الصعود إليها بسلم.

ونرى إلى أي مدى توصل المصري القديم إلى نقد النظام الحاكم بشكل مبسط مستتر ولكنه فعّال من خلال صورة كروكية لثعلب يرعى قطعاناً من الماعز ويقود الذئب الإوز.

وفي اليونان في ذلك العهد القديم نرى أيضا بذور الفن من خلال رجل يُدعى بوستن ذكره أرسطو وأرستوفانيس بوصفه شخصاً يرسم رسومات ساخرة للناس وقيل إنه قتل وهو يعذب بسبب تلك السخرية.

هذا عن جذور ذلك الفن في العصور القديمة، أما في العصر الحديث في أوائل القرن السابع عشر فقد انتشر هذا الفن في هولندا، وفي أوائل القرن الثامن عشر ذاع في إنجلترا وخاصة على يد جورج توتسهند، حيث استخدمه في التحريض السياسي ثم خلفه في هذا المجال وليم هوجارت الذي عبر برسوماته الساخرة عن حقبة من التاريخ الإنجليزي، وكانت أعماله سببا في ظهور مدرسة لفن الكاريكاتير على أيدي فنانين عظام أمثال توماس رولاندسون وجيمس جيلراي، وكانت رسوماتهم الكاريكاتيرية سلاحاً في وجه خصومهم السياسيين، وكانت رسوماتهم مطبوعة باللونين الأبيض والأسود، ثم يلونونها بأيديهم ويوزعونها على المكتبات، حيث كانت أعمالهم تؤدي دوراً سياسياً بارزاً في هذه الآونة.

وفي ايطاليا

ظهر ينبال كاراتشي كفنان كاريكاتيري ومن قبله جيروم بوش الذي رسم الجحيم بتفصيلات مضحكة، ويُعدُ احد المبشرين بالسريالية، ويُعدُّ الكثير من المؤرخين ليونارد دي دافنشي أباً لفن الكاريكاتير في إيطاليا.

وفي فرنسا

في القرن التاسع عشر شهد هذا الفن تطورا كبيراً على يد مجموعة من الفنانين أهمهم هو شارل نيليبون الذي أصدر مجلة كاريكاتيرية، ثم جريدة يومية باسم الشيفاردي ١٨٣٠م، ثم ظهر اثر هذه المطبوعات التي كانت معارضة للحكومة بشكل هزلي الفنان أندريه دوميه الذي تميزت أعماله الكاريكاتيرية بعمق اللمسة وحيويتها. وقد سجن في عهد الملك لوي فيليب بسبب رسوماته الساخرة من الطبقة الأرستقراطية والملك نفسه.

ويعتبر دوميه أول من استخدم الصورة الكاريكاتيرية كشكل إعلاني مستقل. وظهر هذا الفن البسيط في الاتحاد السوفييتي على يد بنيه ستروب ولورسي إيفيموف اللذين لعبت رسوماتهما الكاريكاتيرية دوراً تحريضياً سياسياً في ثورة أكتوبر والحرب العالمية الثانية.

وفي أمريكا

شهد هذا الفن طفرة تطور من خلال الكتب الفكاهية والرسوم الساخرة المطبوعة في العديد من المجلات والجرائد، ومع بداية القرن العشرين كان الأشهر في هذا المجال هو الألماني جورج كابروت.

أما في العالم العربي

وإذا كان الفراعنة هم أول من برع في تصميم فن الرسم الكاريكاتيري واستخدمه وسيلة لنقد الحاكم، فإن أولاد العرب تأخر ظهورهم في مجال هذا الفن في العصر الحديث، وكان تأثرهم بالعالم الأوروبي.

وكان أول من رسم وكتب تعليقات كاريكاتيرية هو الصحفي يعقوب صنوع، وأصدر جريدة هزلية تسمى (أبو نضارة) ثم توالى ظهور رسامي وفنان الكاريكاتير منذ ذلك الحين وأسسوا فناً عربياً قائماً على بنية ثقافية واجتماعية عربية وأبدعوا في مجالهم.

وظهرت رسوم كاريكاتيرية في عهد الاحتلال الإنجليزي لمصر بيد الفنان رضا أو كما يطلقون عليه العم الكبير، ثم جاء بعده الفنان عبد السميع؛ ليصدر كراسة كاريكاتيرية باللونين الأبيض والأسود تدعو إلى التحرر الوطني.

وفي نفس ذلك الوقت عاش في القاهرة الرسام الألماني الكبير سانتيز ورفقي التركي وصاروخان الأرمني، وهؤلاء سادت أعمالهم نبرة السخرية من الأوضاع الاجتماعية، ومن رحم هؤلاء خرج صلاح جاهين وجورج البهجوري وناجي العلي وبهجت عثمان وكان هؤلاء هم الدفعة التي غيرت وجه الكاريكاتير العربي في أوائل الخمسينيات، فقد نجحوا في ابتكار شخصيات عبروا من خلال حركاتها وسكناتها عن همومهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، وجعلوها دعوة للتغير والتحرر من السيطرة المستبدة للحكام.

وتزامن مع فناني الكاريكاتير المصريين فنانون في كل أرجاء الوطن العربي، فكان في العراق الكاريكاتيري اللامع غازي الذي ابتكر شخصية البغدادي الذكي الذي يسخر من الأوضاع المقلوبة بسبب الحكام، ويسخر من الاستعمار، وفي سوريا ظهرت زمرة من فناني الكاريكاتير على رأسهم عبد اللطيف ماديني وسمير كحالة وعلي فرزات.

وتكتمل الدائرة الكاريكاتيرية في الوطن العربي بمحمد الزواوي في ليبيا وخليل الأشقر في لبنان، وكلهم كانت أعمالهم دعوة صريحة ضد طغيان الاستعمار.

وبهذا نرى أن فن الكاريكاتير منذ نشأته على اختلاف منشئه تجمّع في طرق تعبير محددة، وهي إما أن يكون بالتشكيل فقط أو بالتعليق مع التشكيل، ومن خلال تاريخ هذا الفن ظهرت عدة مدارس كلاسيكية يتبلور خلالها مفهوم ومضمون فن الكاريكاتير.

١ - المدرسة الأوروبية الشرقية:

وهي تعتمد بالرسم فقط. حيث تقدم الرسوم الفكرة من خلال اهتمام بالغ بتفصيلات الرسم ذاته حيث لا وجود لتعليق.

٢ - المدرسة الأوروبية الغربية:

الرسم تخطيطي بسيط، ولا بد فيها من وجود تعليق على شكل نكتة أو حوار ضاحك، ومن خلاله علاقة الحوار بالتشكيل الرسمي تظهر المفارقة والفكرة المراد توصيلها.

٣ - المدرسة الأمريكية:

تمتاز هذه المدرسة بالجمع بين المدرستين السابقتين، حيث إن اهتمامها منصب على إعطاء الرسم مضامين ودلالات تتضح أكثر بالحوار.

ومن هذا العرض لنشأة هذا الفن الساخر يجب أن ندلف إلى التعريف بأنواع هذا الفن.

أنواع الكاريكاتير

إن الصورة الكاريكاتيرية هي رسالة من الفنان إلى المتلقي من خلال سياق مشترك قائم على بنية الواقع الذي يعيشونه معاً. ومن هذا المنطلق فإن الفكرة الكاريكاتيرية تنقسم إلى أنواع منها:

الكاريكاتير الاجتماعي الذي يبرز من خلال قضايا وتناقضات الواقع الاجتماعي، وهذا النوع سخريته لاذعة وتهكمه شديد وتأثيره محدود.

أما النوع الآخر من الكاريكاتير وهو الأكثر شيوعاً وانتشاراً هو الكاريكاتير السياسي ومهمته تحريضية بحتة لنقد الواقع السياسي المحلي أو العالمي. والكاريكاتير المحلي يصلح أن يكون به تعليق. أما العالمي فيفضل أن يكون مفهوماً ومعبرا بالرسم فقط. فالحوار قد يكون غير ذي جدوى بسبب الترجمة التي قد تؤدي إلى أن يفقد الحوار معناه المستمد من أرضية ثقافية معينة.

ويوجد نوع آخر من الكاريكاتير هو الكاريكاتير الرياضي وهو نوع صحفي. ويعتبر فرعاً من الكاريكاتير الاجتماعي، ومن خلال هذه الأنواع تظهر وظيفة الكاريكاتير كفن تحريضي دعائي قائم على وجود مرسل ومستقبل للرسم، ومن ثم قيام فاعليات إنسانية بسبب الفكرة التي يطرحها الرسم.

وهكذا نرى أن الكاريكاتير يلعب دورا أساسياً في الدفاع عن حقوق الإنسان. فبهذه الخطوط البسيطة ينتقل المعنى والمضمون. ومن ثم يؤدي إلى حركة فاعلة تقدمية بشأن الحدث الكاريكاتيري الهزلي الساخر. وهذه الحرمة تفتح أفقاً جديدة للمستقبل والواقع إما بمحاولة التغيير أو محاولة الصنع الجديد للواقع على أسس اجتماعية وإنسانية جديدة، وهذا الفن البسيط القوي التأثير يتمتع بروح استقتها منه العديد من الفنون الأخرى استقت هذه الروح الكاريكاتيرية الساخرة: لتظهر عيوب المجتمع الشائنة في صورة ساخرة ممتعة تدعونا إلى التغيير. تغيير الثوابت الراسخات في جذور الواقع التي تحتاج إلى التجديد والبعث. وليدة متأثرة بحركة عجلة الزمن.



عمـــي: يا مَنْ كان شوق السماء إليه أكثر من شوق الأرض.

عمـــي: يـــا جبل الشموخ بين الجبال الراسيات. كم جرّتِ السحب ذيول الخيلاء على منكبـيك! وكـم غسلت الشمس وجهك المنير بأشعة الكبرياء!

عمي: يا قصيدة خالدة على فم المجد. أنشـــدتها مواقف العزّ الرائعات. فإن شموخك أتعـبَ البغي حتى انتحر على قدميه، وهذا سر عظمتك.

عمي: يا وطن النور الذي ينسكب فيه اسمُك كلّما افترَّتْ شفاهُ الصباح. لأنّ دأبك كان العطـاء، والعطاء للإنسان والله والوطن، ولم يَثْـنكَ عــن العطاء زمان قحطٍ ولا محل، وهذا سرّ خلودك.

عمـــي: يـا شعاع نورٍ من اسماعيل، انجدلَ فيها العزّةُ بالكرامة.

عمي: يا نغمة الحبّ الصافي. والإخاء المحـض. يـا زغـرودة الأعراس المجلجلة كدفقاتٍ متلاحقةٍ من النور، يوم ساروا بموكبك المهيب إلى مثواك الأخير. يومها قلنا للأرض: خـذي. هـذه سجايا مئات السنين من غسّان والحســين، إلـــى اسماعيل. حلقات متصلة من طــارف المجــد وتلاده، صلةٌ ما وهت عراها يوماً.

قالت الأرض: مرحباً به من زائر كريم.

يومها حَبِلَ بطن الأرض بأنوار الرحمة، وزهى وجه الأرض بعبير الذكريات العطرة، وكان كل أحد بين العطر والرحمة، يضع يده على ضميره ويقول: يرحمه الله. لقد كان عظيماً.

يا ترى هل سيومض من خلال سجف هذا الظلام نورٌ أكثر وهجاً من هذا الراحل العظيم؟

عمي: كم كنت، في حياتك، تباري الريحَ والمطر. وكانت الظنون تحتار أيهما أكثر عطاءً للإنسان؟ فمن ظنّ أنّ الريح انتصر برحيل وائل إسماعيل فهو مخطئ.. سائل المحتاجين. العوائل المستورة. الملهوفين. طلّابَ الحاجات في الزمن الصعب. من تقطّعت تحت أقدامهم سبل الحياة. سل من تسأل. وستجيبك الحقيقة الصريحة: هل أغلق بابٌ لوائل إسماعيل في وجه قارع؟ هل وسِعَتْ بسمة وائل إسماعيل كل من احتاج إلى ابتسامة؟

أيها الموت: أنتَ الميْت بين يديْ وائل إسماعيل، لأنّ مَنْ يعطي الرضى لا يموت، وهذه هي سيرة الشامخين في التاريخ. فعقبى كل عظيمٍ ما حملتِ الراحات من نعيمه، وما أشرق في القلوب من أنوار رضاه. فمن كان النعيم والرضى زَرْعُه، فإن الزمان يفنى ولا ينتهي حصاده.

عمي: لقد رحلت عنّا تاركاً لنا: مضافة، وبضعة كتب، وسجّادة صلاة. لكن ما تركتَ خارج البيت كان كثيراً وكبيراً. فلا أحد يعلم أيَّ أفق واسعٍ يحيط به. فأنا لا أشكو رحيلك، فالماجدون إنّما يكون ميلادهم يوم موتهم، وهل امتدّتْ يدُ التاريخ يوماً لتخلّد أحداً إلاّ بعد موته؟ فها هو الخلود يبزغ من الشرق ليزهو بالراحل العظيم وائل، في يوم رحيله، ولن يجعله حداداً ليوم أو يومين بل العمر كله، ولن يطويه النسيان.

إنني أعترف أن أجسادنا البشرية أسرى تراب هذه القبور. لكنني لن أعترف أن قيود التراب تستطيع أن تمنع سجايا كلّ أحد من الحرية والانتشار. لأن الشمس لا يحجبها منديل، ولأن القمر لا تستره راحة الكفّ. وهل كان عمي وائل غيرَ شمس وقمر؟..

يرحمك الله يا عمي.. عشت عظيماً. ومتّ عظيماً، وهذا عزاؤنا فيك.. وستكون دائماً يا سيّد المواقف حبر الحداد..